نـــدا العربي

الضابط والدرويش

روايـة

إهداء

الى السيدة الحاضرة دائما

والسيد البعيد أحيانا

ندا العربى

سوف نخطو فوق دروب من الأشواك

لا ضير

سوف نخطو

فى مستهل الوجع

(عند منابت الحزن تقريبا)

(1)

حين كانت برودة الحياة.

تقذف بنا الى سراديب الحزن .

كنت ألمس العجلات المعدنية للمقعد المتحرك ، ذلك الضيف الجديد الذى حل بشقتنا بدون استئذان ، متمنية أن تقل أيام وليال اقامته معنا ، وألا أمنحه فرصة لتثبيت جذوره كنبتة هجينة تأخذ طريقها للتواجد عنوة ، رغم أنوفنا ، رغم آهاتنا وبكائنا ، على حساب ساقىَّ أمى .

وكان الحزن يسد منافذ الشقة ومسام الروح ، حتى العصفور لم يعد يحط على شباكنا وارتحلت علامات واشارات السعادة ، كأنها كانت مجرد غيمة ورحلت مخلفة شعورا كابيا طاغيا ، طارحا مسألة معقدة عن البشر .. تلك الوجوه الباسمة بلا معنى ، وجوه لبست يوما ثوب البراءة وتغنت بلحن الصداقة وهى فى واقع الأمر مجرد أفعى ، تنفث سمها القاتل فى عينيك على حين غرة .. تدعى أنها الحبيبة التى لم تلدها أمك ، تنتظرك على مقاعد الانتظار .وتلقاك باشة

كأنها كانت طوال ليلها تحلم باللقاء ، وتنفجر بمعسول الكلام الرطب ، حتى تخال نفسك على خد السماء تحلق بالمودة ، والبنت الحلوة بنظراتها وفيونكاتها فى الصور القديمة وبتاريخ أيامها البعيدة ترسم أمام عينيك تاريخا . تحفر أخاديد محبتها فى قلبك وتلفك بمعجون الوصاية ، تناديك : مقعد فارع .. تركب السيارات السرفيس لأجلك فقط ، تاركة سيارة أبيها ، وتنثر عطر الغنى ، على رؤوس الجالسات وتتهدج بالتواضع حتى نخالها من فرط محبتنا ، أنها وجدت ضالتها فى الحياة وسط صحبتنا . كانت أمى تنتظرنى كل يوم لأحكى لها ، عن مكائدنا الصغيرة وضحكاتنا الصافية ، ولم تكن تعلم أن القدر يخبئ لها مفاجأة قاسية ، لطمة قاتلة .

فى اليوم الذى اتصلت بها (يارا) لتخبرها بمنتهى البراءة والصفاء : أن ابنتها الوحيدة دهمتها سيارة جامحة .

و بالتحديد قالت لى (مها) أنها حاولت الامساك بالتليفون الذى فى يدها . ولم تفلح . حين سمعتها كمن تحادث نفسها : نتأكد من محبة الأم لابنتها .

ونتصل .

ثم أضافت بأسى حقيقى لم أعد أصدقه.. ثم طلبت الست والدتك وهى فى حالة من النشوة وقالت بصوت يتهدج بالحزن ، كأنها كانت تختبر قدراتها فى فن التمثيل :

. طنط .. البقية فى حياتك ..

. ..... ؟

. بنتك منال .. دهمتها سيارة مسرعة ..

هل توجد فى الحياة سفالة أكثر من ذلك ؟؟!!!

أيوجد انسان على ظهر الأرض يمكن أن يصنع قنبلة بدائية يدوية الصنع تتشطى فى جسد الضحية وتحيلها الى جثة ، عبر الهاتف . لهذه الدرجة بلغ الاستهتار والغباء والعنف والقتل المتعمد بتلك الحيوانة هذا الحد،

كان المقعد المعدنى باردا كما استحالت الحياة مع أمى لقطعة من الثلج الذى تسيل حبيباته فى عيونى كل لحظة أرى فيها غزالتى الجميلة وقد صارت قعيدة فاقدة النطق اثر جلطة مخية .

حين رأتنى حاولت أن تصرخ ، أن تنهض ، تسترجع ذاكرة النهوض والعافية ولم تفلح .

أشارت بيدها وصودرت عنها مايشبه الهمهمات .

لماذا الجمل الناقصة نستكملها دوما بالدموع ؟

لماذا نهفو للبوح وقت الشدائد فلا نمنح الآخرين الا مساحات لإضافية من العجز ، الاستغاثة ، السقوط وسط حفر عميقة من الموت المفاجئ .

ربما كان اللون لأبيض والمشيعون والصراخ فى نهاية الأمر قاسيا على الروح ، لكن تنسحب مع الأيام كل أشكال الرفض أمام سلطان الموت وخالقه نستسلم للقدر .

لكن اليوم اكتشفت أشكالا أخرى من الموت ، أصعب بكثير وأشد ايلاما ، هو ما حدث لأمى ، أن تموت ولا تموت تتنفس وتتناول الطعام ، ولاتقوى على الاخراج بمفردك ، تبكى ولا تقوى على تجفيف دموعك بمفردك حين تعجز الأعضاء عن القيام بوظائفها نشعر بانسحاب الحياة من عروقنا عند الحاجة ، نصير أقرب للجثث العفنة التى تأبى الذهاب لمثواها الأخير ، الماء المالح الذى ينثال على الخدود هو الرحمة الباقية ، واللطف العظيم من الخالق .. لك الحمد يا من أجريت الدموع بأعيننا حتى لا نموت كمدا دون تنفيس ، الشكوى ليست اعتراضا على القدر .. شعرت مع الأيام أن

الشكوى مذلة للروح ، مذلة للجسد ، ونحن فى حاجة على الدوام لمن يذكرنا بقدرته ،سبحان الشافى المعافى ، خالق كل شيئ بقدر ومجرى السحاب .

أسندت فى ذلك المساء أمى ، وكانت تتحسس وجهى وجسدى السليم المعافى وتكاد تخرج الحروف من شفتيها ، تحتضننى وتبكى ، تهمهم ، قليلا ثم تبكى .

فى السمشفى العام وبخنى الطبيب لتأخرى ، بضعة ساعات انقضت حتى وصلت اليها ونقلتها ساعدت الجلطة أن تجمد وباءت كل الحقن التى أوصى الطبيب باحضارها على نفقتنا ، قلت غالية ، ومررت على أقاربنا .. عندما كانوا يشمون رائحة الموت الطويل فى رقدة أمى يتراجعون ، وتتراجع كل أشكال المساعدة المتوقعة ، يتركون أيديهم فى جيوبهم ويمطروننى بالأسئلة ، وكأن الشفاء يكمن فى الاجابات ، صاروا أطباء وقضاة ولم أكن حتى ذلك الوقت أعرف ما حدث بعد ذهابهم . وهم يمصمصون شفاههم .. جاءت طبيبة وأوصت أن أحضر المزيد من الأدوية ، فبكيت ، وبكيت ، وما كنت أظن أننى سأقبل مرغمة مساعدة . ذات يوم . من أحد لا أعرفه . كانت سلفة المعاش التى حملها لنا ضابط

رفيق لأبى يسرت لنا تلبية الضروريات بالكاد ، أشهر مرت على استشهاد أبى والمعاش متوقف .

حاولت وما وصلت .

حين يهاجمك وحش المرض فجأة ، فليس أمامك سوى الاستسلام .سوى الخضوع لسلطان الموت .

و لا يتبقى سوى الضغينة لهذا العالم الذى لا يرحم.

يزاحمك برد الشتاء وبرودة الناس ونظرات الشفقة والحيرة ، تزاحمك الأفكار السوداء ، ويتملكك يقين باللاجدوى والضياع ، مع كل دمعة ، مع كل التفاتة من عينىَّ من تحب تدفعك لكراهية نفسك والحياة وتشعرك بالعجز الكسيح .

(2)

بعد أيام عدتُ بأمى الى الشقة ، نتطلع فى أعين بعضنا باحثين عن اجابات لأسئلة كثيرة جوهرية عن الصحة والمرض .. الحياة والموت اليومى على مقعد معدنى منحتنا اياه سيدة رحيمة كان فى يوم ما لزوجها الراحل ، كانت تحتفظ بملامحه على المقعد ، وتخاله لم يزل يناديها عند الناصية ، حين كانت تبتاع ا لآيس كريم ، قالت لى " رجائى

الوحيد أن تعيديه لى سالما ، هل صار المقعد أنيس وحدتها ، كانت تعيش وحيدة فى شقة من شقق الاسكان الشعبى .سافر ابنها الأكبر الى العراق وانقطعت أخباره ، فذهب الثانى باحثا عنه .. عاد بعد عام وقد تزوج ثم سافر مرة أخرى .. .وما لبث أن انقطعت أخباره بعد بضعة أعوام هو أيضا .. هل كان القدر يترصدها عند كل ناصية ويغافلها ليسرق زهور عمرها . البنت التى تبقت لها تزوجت ، تزورها كلما اشتد بها الشوق اليها .. البنت الوحيدة الباقية منعها مؤخرا زوجها من زيارة أمها ، لم يبق للسيدة الرحيمة سوى مقعد معدنى بعد رحيل الجميع .

الجدران تحمل ذكريات صارت غائمة ، كأشعة بعيدة لشممس غاربة .

قالت أنها كانت تدفع المقعد داخل الشقة وتتحدث مع زوجها وتلقى عليه باللائمة ، تعاتبه ، وأحيانا كانت تسمعه يناديها ، تجعل المقعد تحت صورته تماما .. وتعيد عليه تصرفات ولدها الأكبر وشقاوته ، وانه لم يكن شديدا معه ، لم يوصيه بأمه ، حتى البنت أم ضفائر صارت لا تقوى على المطالبة بزيارة أمها .

وكان الراحل زوجها يواسيها . يأخذها فى حضنه ، يتمدد بجوارها ويلاطفها ، تمسح الدموع وتستند الى الجدار .

(الجدران باردة يا ابنتى)

الجدران ملساء مستقرة فى الأرض ، عفية تترك دموعنا تنساب عليها وهى شامخة.. الكل راحل يا ابنتى ، ذاهب للبعيد ، مسافر . لا يرهقه السفر ... ربما يلتقى الجميع فوق الشاطئ الأخير للحياة

هززت رأسى مؤمنة على كلامها

قالت : حتما سوف نلتقى يا بنيتى .. الله لا يرضيه ذلك ولمعت عيناها بالدموع .

(3)

فى الليلة الأولى بعد العودة من المستشفى . أيقنت أن عقارب الساعة توقفت ،

وأن الزمان سوف يعود للوراء وسوف أرقب الجدران وألمس برودة الحياة فى التفاصيل .

عندما نسلم أنفسنا للضياع تصفر الريح فى أرواحنا مطلقة عواء ذئاب جائعة وكأننا ذاهبين بارادتنا للمسلخ . وكأننا وريقات ذابلة ة تذروها الر ياح ..

قمت بتحميمها والباسها ملابس بلا رائحة .

غادرنا المشفى ووجب علينا التخلص من روائحه المقبضة ، لكن الأدوية لم تزل تلاحقنا .

استكانت على السرير وتظاهرت بالنوم .

تحاول أمى دفن ألامها فى الوسادة وحبس دموعها عنى .

كلما سحبت طرفا للحديث معها ، أشارت بيدها معلنة رغبتها فى النوم. أخبرتها أننى من الآن سوف أنام معها بنفس الحجرة وسوف أنقل مذكراتى ودفاترى الى هنا .

يجب أن نتوحد ضد المرض نواجه الحياة بروح أبيَّة .

وقلت لنفسى يجب أن .... وأن ..... كثيرة هى الواجبات ولتتراجع كل الأوليات للوراء .

كل الصاحبات زائفات بوجوه كاذبة ، لأقطع أواصر علاقات غير مجدية ، ولأتنفس مع أمى من ذات الأنبوب الضيق ، بذات الشهقات . حتى لا تبكى وحيدة عزلتها .

تركتها تدعى النوم وركنت رأسى للجدار .. صار المقعد الذى يتقاسم معنا حجرة أمى . لا يفارق جسد سيدة كانت تنعم بكل مباهج الحياة .. أهز الصورة ولا أقدر . الصورة ثابتة راسخة كالجدار .

" أكانت اللعينة تختبر محبة أمى لى .. أم تنتقم من أمها فى أمى ..ألأنها عاشت محرومة من أم انفصلت عن أب لا يشغله فى الحياة سوى جمع الأموال ورصها بعناية فائقة ، فى حقائب ، ثم فى حسابات بنكية ، ثميقضى السهرات يأحضان الخمر والنساء .

ماذا تفعل بنت ضائعة تافهة .. مشوشة .

ام كانت تسطر غيرتها المقيتة فى دفاتر الألم بحروف لها طعم الصبار.

تنتقم من كل الأمهات .

تعلن رفضها للمحبة

للحياة .

تلك اللعينة من طراز غريب يصعب تحليله .

أى متعة جنتها .. أعلمت ما فعلته مزحتها السخيفة ؟؟!!

أشعرت يوما أن الطيور تساقطت على أعتاب الخيانة والغيرة والحقد ، أتعلم أن القلوب الضعيفة لا تقوى على احتمال فرضية الموت.

هو الموت المفاجئ .. مثل الموت المجانى كل يوم على الطرقات ، فى الباصات والتروميات والقطارات والطائرات موت رخيص لا معنى له فى كل أنحاء العالم ، موت يختلف قليلا عن الموت المعد حسب خطط عسكرية وتحمله قاذفات الموت العملاقة ،

ليحصد الالأف والملايين ، كأنهم وقود الحياة لسادة العالم هؤلاء الذين يصنعون الموت فى كبسولات .

موت يخلف أحقادا تاريخية لا يمحوها الزمان ، يتولد عنه ما يسمونه اليوم بالارهاب.

كانت أمى قد دخلت مرحلة الأنفاس المنتظمة التى تسبق الشخير ، وكنت أرقبها محاولة إبعاد شبح المقعد المعدنى المجاور للسرير . بينما ترقد علب الدواء على (الكمودينو) بالقرب من يدها .

منذ اللحظات الأولى لسقوطها وأنا أحاول أن أزرع أشجار الأمل فى قلبها الواهن ، كأن أرضها صارت بواراً ، صحراء

رملية ، أرضا ملحية . بالرغم من تبسمها لى . هى الأخرى تسعى لتخفيف ثقل الحزن المستقر فى مياهى الراكدة .
أمسك بيارق الأمل وألوح بها لعلها تنام ، أحاول ألا أغادر جزيرة وجعها الذى حل علينا كالصاعقة .
فى تلك اللحظة تمنيت أن تقع الملعونة فى يدى ، لو لأطبقت عليها بكل ما أوتيت من قوة ولن أفلتها تنعم بأنفاس الحياة ، لن أفلتها حتى لو ركعت على ركبتيها طالبة مغفرة مستحيلة .
حطَّ طائر النوم على أجفانى وأنا بين أروقة المشفى من حجرة الطبيب المعالج للصيدليات .
لم تتوقف قدماى عن السير وأنا غافية ، على مقعد من البلاستيك السميك ، دبيب النمل يسرى فى أوصالى ، يترسب الملح فى كعبىَّ ، كما يترسب الأنين .
أفقت على صرخة جريحة ارتجت لها الجدران ، فتحت عيناى كانت أمى تشير بيدها ، فساعدتها على النهوض ، ارتعشت ، كما اهتزت الستائر ، للحظة ارتعدت أوصالى حين ظننت أن طائر الموت فتح شبك الحجرة عنوة وحلق فوق رؤوسنا ،

للحظة وجدتنى آخذ أمى فى حضنى وأبعدها عن تحليق طائر الموت . ساعدتها على ارتشاف القليل من الماء .

ماذا رأت ؟

هل رأته ؟؟

أكان هو ؟!!

أم كانت الريح تزمجر غاضبة من الغفلة التى حلت على سكان المدينة .

ناس المدينة لاهون ، مخادعون ، يركلون بأحذيتهم الغليظة عصافير الشوارع ، عصافير تلوح بالمناديل الورقية ، بالفقر والعوز فى أعينهم تموت البراءة كل يوم .

، رتل من السيارات لا ينقطع ..

المدينة فى المساء لا تعرفنا ، توارى وجهها الممجوج بالغناء ، وتستظل بضجيج الباعة ، تستعيد أنفاسها بالهابطين من محطات القطارات وعربات الخط والسرفيس ، تدفع بالدماء فى عروق الميدان فيعم اللغط والعرق والزحام ، وأنا مضطرة لعبور الميدان ، أجدنى أنسلخ من بينهم ، كقطة مذعورة ، تخشى الأقدام المارقة .

الأمير

(الفارس القديم)

(1)

بعد الحاح كتبث أمى ، تلك القصاصات الصغيرة التى قمت باعدادها كبطاقات صغيرة ، تحمل أرقاما فى ركنها الأيسر بالرصاص .

أكدت لها أنها الطريقة المثلى للتواصل معها ،

ولم توافق بهذا الا أن ألتفت الى محاضراتى وأتقدم أنا فى تحصيل علومى .. بينما هى بحوارى على مقعدها المعدنى ، أمامها منضدة صغيرة .

ولما تتعب من طول المكوث على المقعد كنت أساعدها فى الانتقال للسرير ، وأعد لى ولها كوبين من الشاى بالحليب ، أوالحلبة .. والقهوة أحيانا .

فى البدء كانت القصاصات شبة فارغة ، مع الأيام سرعان ما امتلأت ، بل تحسن خطها وصار صغيرا منمنما ودقيقا حتى يتسع لاحتواء ثرثرة أكثر ، تفاصيل أكثر .. الحياة تبدأ معنا كزحف الرضيع الذى يتلفت وراءه . باستمرار . لينال ابتسامة

الرضا من أمه كى يواصل ، سرعان ما يعتمد على ذاته واثقا فى اكتشاف مجاهل وخفايا المكان .

(قصاصة)

اسمى نرجس

بنت محمد البسيونى

لا أعرف كم من السنوات عشت

عشت الحياة بحلوها ومرها ، بوجعها وأفراحها ، بليلها ونهارها ، منذ انطلقت أقدامنا فى فضاءات البلدة ونحن لا نتوقف عن السعى واللعب والزواج وانجاب العيال .....

(قصاصات)

كأننى فوق تل كبير يشرف على هاوية

.....

النافذة ترمى بأشعة باهتة على السرير والمكتب وأرضية الحجرة .. كمن يدلق ماء فى بحيرة راكدة .

.....

الباب مغلق منذ عودتنا من المشفى ، هل صرتُ سجينة هذا المقعد للأبد ؟

هل هذه هى الحقيقة الوحيدة التى يجب أن أصدقها الآن ؟!!

لا يا ابنتى .. فكرة الكتابة فى الورق تشيع فى قلبى الألم ، والقلم يطأطئ رأسه حزنا ويتمرد على أصابعى ، كأن أصابعى أصابها الوهن .
يكفى هذا

بعد العودة من الجامعة وبعد مطالعة القصاصات لملمت بقايا متاعبى وأضفتها للوريقات ، رميتها بنظرة أسى ، وفتحت علبة من البلاستيك كانت تحمل أسطوانات الكمبيوتر من قبل ، لاطفت أمى وقلت :

لا عليك يا ست الكل

ذلك اليوم حاولت أن أصفى ذهنى وأخلد للنوم فرأيتنى أصعد قمة جبل عال .. عال.. أدفع مقعدا معدنيا فارغا وأخذت أنادى : أماه..... أمـ..........اه أين أنت يا روحى؟ .. بات واضحا أنها تدحرجت فى غفلة منى ، وكنت غافية بُعيد السكينة بقليل .

....

(قـصاصـــة)

فى البدء كنت ألهو فى شوارع قرية متربة ، دور الطين ترمى بقشـها وحطبهـا ومحبتهـا علـى بعضـها ، دور طينيـة تسـعد بخـوار البهـائم حـين تـنهض مـع شقشـقات يـوم جديـد علـى مجيئ أصحابها فرحـة بـآذان الديوك الذى لا ينقطـع وتباشير الفجر التى حلت فكانت دليلا على اقتراب موعد انفكاكها من محبسـها وطلوعهـا للغيطـان حيـث الهـواء والحيـاة والعلـف .. تفـرح القريـة بحميرهـا التـى تحـرن معترضـة علـى تحميلهـا بالروث كل يوم ، فتصدر نـهيقا خاصا لأصحابها خاصة حين يلحظـون إنـاث الحميـر علـى الطريـق ، تخفيـف الحمولـة تساعدهم على اللحاق والنهيق بصوت حيوانى ، يحمل غولا صريحا ورغبة جامحـة ، ولولم يلاحقهم أصحابهم بالعصى ، لسقطت الحمولة واخترقوا الحقول سعيا وراء رغبـة لا تهدأ . العصـا تلهـب جلـودهم وتدغـدغ عظـامهم فيئنـون معترضـين أحيانا يرمون بأحمالهم ويولون الأدبار عائدين لبيوت الطين وأحيانـا ينزلـون للغيطـان سـعيا وراء التقـاط أعـواد البرسـيم أو الأذرة ، أو قضم الحشائش على الترع والخلجان .

كان أبى . وأنا صغيرة . لا يمر يوم حتى يجلسنى فوق حمولة الروث المغطاة (بالغبيط) ولما أتعلم نطق بعض الحروف جيدا ، فأقول للسائرين أمام الحمارة (نايييل يا عم) بدلا من (مايييل يا عم).

أبى فى الدار يقوم بالتحميل وأمى فى الغيط تستقبلنى ، تفرغ الحملة وتحملنى كعصفورة لا تقوى على اعتلاء الحمارة بعد ، ثم تطالبنى بأخذ بالى من نفسى ، ولا أعرف كيف يكون ذلك لو حرنت الحمارة ورمت بى فى ماء الخليج وفرت مع وليفها ، كنت صغيرة تنتابنى الهواجس والخوف ولا أقوى على قول شيئ الا النذر القيل لأمى .

كنت أرى دور الطين تسمع همس نسائها ، وصخب شبابها وأحاديث رجالها ، فتبتسم .

كنت أنت يا (أميرى) ، تأتى فى الاجازات الصيفية فقط .. تأتى فأحس بدقات قلبى وارتعاشات تمسك ببدنى ، وعرق بارد يلم بأطرافى ..اذا ناديتنى وصافخت يدى ، أجلس بالقرب منك كحارستك الأمينة ، أخشى عليك أن يصيبك جو القرية بالملل ، فتفر منى سريعا لمدينتكم ، أخشى أن أغضبك دون قصد ، تسأل عن بعض الناس الذين تعرفهم ، لأقص عليك

طرفا مما أسمع من ثرثرات أمى مع سيدات البلدة ، تبتسم كأنك تكبرنى بعشر سنوات وأنت أطول منى بقليل ، تسأل عن الشيخ فى كتاب القرية ، وتسأل عن تاجر البيض (عم عزيز القبطى) وعم جمعة موزع الخطابات وشباب بأسمائهم ، لا أسمع الا عن بعضهم ، أحيانا أسألك عن الصلة التى تربطك بهم فتهز رأسك نافيا أنك تعرفهم بشكل شخصى ، لكن تسمع عن نبوغهم فى التعليم من ذويك .. تسألنى عن المدرسة وأنا أسعى جاهدة أن أخبئ عنك خبر انقطاعى تماما عن الذهاب للمدرسة تنفيذا لرغبة أبى .. أتذكر إلحاح أمى فى الليل البارد ، وتهديد أبى لها بالضرب اذا لم تكف عن مطالبتها ، أن أستكمل الابتدائية . أمى تهمس له برقة ، ترجوه "البنت تجيد القراءة والكتابة وتحفظ نصف المصحف .... " . جواب وحيد لأبى أمام كل محاولات أمى : البنت لدار زوجها . . يكفى ما حصلته .. واختتم الحديث بالقسم البغيض (يمين طلاق منك ب.. لو سمعتك تتكلمين فى هذا الموضوع مرة ثانية .. تكونين طالقة بالثلاثة.. وها أنت سمعت يمينك بآذانيك)

تهز رأسك يا (أميرى) ولا تبدى اعتراضا أو غضبا ، لا تخفف عنى ولا تنبس ببنت شفة ، كأنك موافق على حرمانى من التعليم ، أشعر ببعض بالغصة المريرة فى حلقى ، ولا تعليق منك ، لكنك فاجأتنى فى الاجازة التالية باحضار بعض الكتب لى ، وأخذت تشجعنى على مواصلة التعليم ..

قلت : ليس مهما الحصول على شهادة .. المهم أن تتعلمين أسعدنى اهتمامك بى ، قرأت قصصا وروايات وأشعار رائعة ، فوق سطح دارنا ، مختبئة بين أعواد الذرة وكومات القش كانت أمى تعلم ووافقت حتى أكف عن البكاء ، لكنها حذرتنى أن يرانى أبى أن يرانى أحد من الجيران فيشى بى .

(2)

حين انتهت زميلتى من احتساء الشاى ، أسرت لى بأسفها الشديد عما حدث لأمى .. تطلعت لعينيَّ المحمرتين.. و.كادت تبكى ، رؤية الدموع فى عينيها جعلتنى آخذ بيدها من منطقة الشكوك الرجيمة ، من السلة التى جمعت بها كل الزميلات وأحرقت وجوههن الكاذبة بعد اتصال الملعونة ، لم أسأل ولكن (مها) كانت تحس بسؤالى المتقد على جمرات

النار ، فما كان منها الا أن قالت : لا تبحثى عنها لم تأتْ للكلية منذ يومين ، مؤكد أن إحداهن أخبرتها بالمصيبة التى ارتكبتها .. فى حقك .

همست "بل فى حق الحياة .. طعنت البراءة بخنجر مسموم"

رفعت صوتى : آ..هـ لو أراها .

أردفت (مها) بتأن : تملكى أعصابك . ما فعلته الملعونة كان بعيدا عن الأنظار .. أما أنت لو اشتبكتِ معها أمام الجميع سوف يقومون بتحويلك لمجلس تأديب .. ربما تصل لحد الفصل .

كنتُ أعلم .. و لم يشغلنى منذ الحادثة سوى الامساك برقبتها وخنقها أمام جميع الطلاب .

كانت حركة الطلاب والطالبات بطيئة تبعث على الملل ، كماء ينزلق فوق سلالم وسخة ، فى الخارج أصوات مختلطة ودوى طلقات .

الضجيج صار لغة جديدة للاعتراض ، كما صارت المحاضرات تعكس فكرة حفر الخنادق تحت قصف النار ، فى أوقات انتقالك من مبنى لمبنى ، كأنك رفعت رأسك خارج

الخندق قد تصيبك رصاصة مارقة ، ربما تجد نفسك وسط ضيجيج وهرج لا أول له ولا آخر ، واقفة وسط هتافات لا تنتمى لك ورؤى سياسية لآخرين صار صوت حناجرهم حادا عنيفا ، لا يجيد لغة الحوار .. أى طرف فرض على الآخر تلك اللغة ؟!!! كنت أحيانا أسأل نفسى ، أسترجع مشقات الانتقال فى عربات السرفيس التى تزحف كالسلحفاة من الزحام والتفتيش ، الذى لا يتوقف بدءا من بوابات الحديد ، ومراجعة حاجاتك الخاصة أقلام الروج مدعاة للسخرية ، سندزتشات البيض والجبن أمام الزميلات دليل على أنك ما زلت طالبة فى الروضة كل حاجياتك الخاصة على الملأ ، أنت مكشوف ، تصفعك البرودة فى كل موضع ، كأنك تسير بمؤخرة عارية ، مضطر أن توافق ، وترضح لأمزجة السادة .

أيها السادة .

أيها الطلاب .

أيها ال..

نداء عاجل لجميع الأطراف المتصارعة ، تعبنا من القنابل المسيلة للدموع ، الروائح الخانقة ..

قلبى يخفق كلما سمعت صرخة ، صورة على الحائط ، دمعة حبيسة فى عين مجروحة .

يتسع قلبى للجميع .

هؤلاء الرجال المتعبون الذين أنهكهم السعى وراء اطفاء الحرائق فى كل مكان ، ألمح أشلاء أبى فى الأفق البعيد ، أبى شهيد الحق والواجب ، تخضبت الرمال بدمائه ..هل غفلت عيناه لحظات حتى طيرت القنبلة جسده المتشبث بالحياة .

لماذا لم تتسع الحياة فى قلوبهم للجميع

أتوزع على الخريطة ، وأتشكل على هيئة فراشة ، وأحلق باحثة عنى وجهى الذى غيرت ملامحه الخطوب وأضفت اليه الحناجر الحادة والقلوب الصدئة بقعا مظلمة من سواد ، هل يستحيل وجهى لمسخ مشوه مع الوقت ؟ أم يمكننى أن ألملم بقايا اللحم المتهرئ هنا وهناك .. أخمد النيران قبيل اشتعال كل الحرائق ، أنزع فتيل الوجع قبيل رسوخ الحزن المقيم .

أتعبتنى الشاشات والاذاعات والادعاءات ، أكاذيب هنا وهناك ، صراخ فى الجانبين ، مصائب فى الجانبين ، ضحايا فى الجانبين .

أصدق من وأكذب من ؟؟!!
أينهض أبى ثانية ؟
أم تلاحقه الانفجارات البدائية والبربرية ؟
ويطمس الدخان تفاصيل الخريطة .
خرجنا بشق الأنفس من وسط التجمعات ولحقنا بعربة سرفيس خاصة للبنات ..
رأيت الشوارع لم تزل عالقة بها روائح الدخان ، هؤلاء السائرون هنا لا يعلمون بعودتنا من جحيم الخنادق .

(3)

بلمسة من يد أمى ، تلاطف بها ظهرى ، أفقت من شرودى ، لمسة من حنان غاب عنى منذ سقطت بالجلطة المخية ، وغابت ، ثم عادت بفضل رضاء ربى عنى ، وبكائى الذى لم ينقطع حتى الآن .. أنا الوحيدة ، بلا أقارب .
ناولتنى قصاصة صغيرة ، مكتوب فيها :
. يساويها ربنا يا ابنتى .
وأكملت بخط سميك كمن يؤكد على الآية
(قل يا أيها الذين ءامنوا لا تقنطوا من رحمة الله)

نطقت الآية بصوت عال ، ثم انهرت باكية ، كبيت قديم تهدم فجأة إثر زلزال مدمر ..

توضأت وساعدتها على الوضوء ، وبعد الصلاة رفعنا أيادينا للسماء ، انخرطنا فى بكاء ممدود ، بكاء يغسل القلوب ، بكاء ، ويفيض سائلا على الخدود ، بكاء يريح النفس من عناء البعد والتنائى .. شعرنا بالاقتراب الدافئ من الرحمن الرحيم . ولما ارتقينا حتى وصل هسيس صوتنا حد التهدج ، فاضت بى الأنوار ، وجدتنى أحلق كيمامة كبيرة وأمى تحلق بجوارى وموجات السحاب الأبيض ..تحملنا فوق ظهرها، وطيور لا حصر لها تحفنا ، وتبتسم .

لا أدرى متى توقفنا .

وفى آخر الشوط تساندنا على بعضنا البعض ، وكأننا هابطين فى تلك اللحظة معا الى أمنا الأرض .

.....

(وريقات للأمير)

اعلم يا أميرى أنك الحلم الذى بات يملأ علىَّ خيالى ، أينما سرت يملأ روحى ويمنحنى أسباب الحياة .

كنت صغيرة لم أعرف بعد الرعشة الأولى ، وانتفاضة الروح بالحياة .

وأنت يا أميرى تأتى مرتين فى العام ، فى الاجازة الكبيرة صيفا تظل قرابة شهر ،وفى الشتاء تبقى أسبوعا . هل تعلم أنى كنت أعد الأيام والليالى حتى أراك ، أعيد ترتيب المواضيع التى سوف أخبرك عنا ، أسجل عنها كلمتين حتى لا يأكلها غول النسيان ويطويها فى جعبته ويرمى بها فى الخرابات ، ما أكثر الخربات يا أميرى فى قريتنا ، سوف أحدثك عنها :

- الأرانب البيضاء التى طلعت لأمى فى خرابة (الشيخ سليم) وأسقطت من فوق رأسها اللين وأنا منذ سمعت من أمى ذلك ، أخشى السير وحيدة فى الليل ، وخاصة فى خرابة الشيخ .. تقول خرافات؟؟!! .. أنت لن تصدقنى بسهولة ، مثلى تماما يا أميرى .. تحكى أمى أن قتيلا ما عثرت القرية على جثته فى تلك الخرابة .. ولماذ تظهر القطط ، اسمع يا سيدى قد تطلع مكان القتيل قططا أو كلبا أو ماردا ، روح القتيل التى لا تهدأ بسبب الظلم الذى حل به ، تحل

فـى كائنـات أخـرى .. يقولـون أنهـا لا تغـادر المكـان الذى قتلت فيه ، وتظل تعذب الجميع ولن تكف حتـى يتم القصاص من القاتـل .. لا تسألنى فأنـا لا أعرف أكثـر مـن ذلـك وعنـدما أجهدت أمـى بالأسئلة ، قالـت لـى بالأمس : لا أعرف .. اقفلى هذه السيرة .

- لمعظم القتلى فى قريتنا حكايات .. اسمع يا أميرى .. كـان عـم حسـين (جمـالا) .. بقـوم بنقـل أعـواد الأذرة والقطـن والقـش ومحاصـيل الأرض فــى مواسـمها ، وينال أجره عند جنـى المحصول من ذات المحصول ولما تطور الأمر صار يتفق علـى نقل الأحمل مقابـل أجـر معلـوم . لا يصل علـى أى حـال عشـرة قـروش ، فى ذلك الزمان.

شـاهدهم يمسكون برجـل وحيـد ، لـم يتبـين ملامحمـه جيدا فى غبش المغيب ، عند الساقية .

ويقتلونـه رآهم قبيل انسحاب آخر ضوء من ذلـك النـهار . عرفهم وعرفـوه .. أيقن أنـهـم سوف يحـاولون الـتخص منـه ، دعاه الأول الى الغداء على (فطير بالسمن البلـدى .. لكنـه أكل مـن نفس المكـان الـذى امتـدت اليـه أصـابع

مضيفه بعدما التقط اشارة المرأة لزوجها (القاتل) . نجا من موقعة الفطير ولم يخبر بها أحدا .. ولما دعاه الثانى على العشاء باصرار فيه الكثير من التهديد ،والوعيد .. قال لنفسه .. سوف أذهب حتى آخذ فرصة للتفكير فى الأمر ، أو يقدم الله أمرا كان مفعولا .. كان العشاء لحما وأرزا فوق طبق من الفتة دس (الجمال) قطعة اللحم (منابه) فى جيبه ،فى غفلة من الرجل ، وعاد بها الى داره ، يتلبسه الخوف . أدرك . عنددئذ . أن الثالث لن يدعوه وأنهم سوف يتخلصون منه بنفس الطريقة التى شاهدهم فيها بعينيه عند الساقية ، فى المساء سرد لأخويه ما رأى ، فما توصل معهم لحل ، باع الجمل فى اليوم التالى ، وترك زوجته وولده الرضيع وهجر البلدة للأبد .. ثم حكى أحد أبناء القرية أنه شاهد عند ذات الساقية كلبا أسود ظل يسد عليه الطريق ، وكلما حاول تجاوزه كانت البهيمة تسقط ، والحمار يجره جرا ، ولولم يمسك بالحبل جيدا لانطلق منه فى الغيطان .. هل تعلم أنه ظل على هذه الحال قرابة الساعة حتى وصل اليه أخيه وكان يبحث عنه .

- كنت أتساءل لماذا تظهر العفاريت فى القرى دون المدن ؟!! وكنت أجيب نفسى السائلة ..
- وهل فى المدن خرابات .

.....

رأيت لمعة حلوة فى عينيىَّ أمى ، هل هى الذكريات ، أيام الصبا ، أم كان ابن الذوات الذى لم تذكر اسمه حلمها الأول ، أول طائر نقر بمنقاره فى فضاء قلبها .

سألتها والليل لم يزل يسدل أستاره على مدينة هدها السعى

فمالت برأسها نحو واحة السكينة ، وها هى تحاول أن تسترد أنفاسها ، روحها ، مرحها ، تسترجع اللحظات الحلوة وتتوقف متأنية قليلا من الوقت ..

سألتها : كنت تحبينه يا أمى ؟؟

ابتسمت .. كأنها تستعيد قلب بنت صغيرة لم تتخط عتبة سن المراهقة ، بنت كزهرة النوار تحمل فى روحها بقايا ألق قديم أسندت ظهرها للمقعد .. تلافت وريقة ، وكتبت : العاطفة يا ابنتى احساس رائع ، يجعل الانسان يحب كل الكائنات من حوله ، نظرة الحبيب سحر لا يقاوم .. كل البنات يخشين

الحب ، الحب عيب .. جريمة قد تودى بحياة الفتاة .. كان الزمان قديما .

أعطتنى الوريقة وأمسكت بأخرى ، شردت بعض الوقت .. تورد وجهها . وكتبت . (أحست أمى بدماء الحب تجرى فى أوصالى .. أمسكت بيدى وهى تراقب سقوط قرص الشمس الأحمر وراء المقابر .

وقالت لى : يا ابنتى الماء لا يطلع فى الأعالى .. لم أفهم .. فأضافت ما تتعلقين به بعيد المنال ..بعد القمر من الأرض ، الفلاحون أمثالنا الذين يعملون (مرابعين فى أراضى الخواجات والعمدة وأهل الأمير) وجميعهم لا يقيمون لنا وزنا ، ولا يحسبون لوجودنا قيمة ، وجودنا كوجود الأشجار على الترع ، هل تشعرين بالحشائش حول الخلجان ، نقصت أم تكاثرت ، أينعت أم اجتثها الفلاح من جذورها ورمى بها .

كانت أمى حكيمة لم تنطق باسمه لكنها منحتنى صورة لم تتزحزح يوما من الذاكرة أن [كل فولة ولها كيال] خلاصته .. صرت أراه حلما بعيد المنال ، واكتشفت أنه لم ينطق بأية كلمة صريحة .. ربما كان يأنس بى ، يرى فىَّ عينيه اللتين

تريـان وتصـوران لـه القريـة فـى غيابـه ، لا أعـرف .. أكـان مشغولا حقا بالقرية وما يجرى فيها .. أم مشغولا بى ؟
سألتها بايقاع يسحب الاعتراف خلسة من بين شفتى متهم شارد فى عالم ساحر : حب من طرف واحد ؟؟
كتبت بعد وقت ليس ببعيد: .. كان حلما .

الضابط

(1)

كتبت أمى فى وريقاتها

(وقفتُ وراء أمى مثل دجاجة ترتعتش ، تخشى السكين ، لم يكن أبى بيده سكينا ، كان ثائرا والغضب يتقافز كعفاريت الظهيرة ، احتميت كالعادة بأمى وهمستُ سائلة " من أخبره" .

لم تكن بالطبع أمى ، ولم يشى بى أحد الجيران لأننى كنت صغيرة لا أبين وسط كومة القش ، تمر العصارى وأنا أتصفح الكتاب الذى أهدانى اياه الأمير .

من وشى بى يا ناس ؟؟

عرفت أمى بعد سقوطى بين يدىَّ أبى اللتين كانتا تتناوبان التوقيع على وجهى وأكتافى بمنتهى العنف ، وتدكان رأسى بغل قديم كمن يرغب فى اعادتى طفلة صغيرة أو ارجاعى لبطن أمى .

وعرفت من أمى أن الأمير نفسه هو من أبلغ أبى ، بعدما امتدح ذكائى أمام ناظر الزراعة والخفيرين وثلاثة من الفلاحين ومد يده لأبى بكتاب لى ، ولما اعترض أبى ،

متعللا أن ابنته غير فاضية لشغل (الأساتيذ) هذا ،انتقده الأمير ببرود قاتل . أمام الجميع . دون تقدير لفارق السن فى حديثه :ألا يكفيك أنك أخرجتها من المدرسة .

استمع له أبى ولم يعلق سوى بكلمتين : يكفى يا أستاذ ..

وبعدما قطع مسافة ليست بالقليلة استدار نحوه قائلا : تركنا العلم لأولاد البهوات أمثالك .. تكفينا زراعة الأرض وتربية المواشى .

لماذ ظل أبى شاردا لأيام .

أنجب أبى من بعدى كتيبة من الصبيان لم يفلح منهم أحد ؛ بل لم يفلح من أبناء الأقارب جميعا سوى ابن خالتى (سيف الاسلام) ..

البنت مزرعة للعيال .. البنت لدار زوجها .. البنت عبء .. يكفينا ما بنا من أعباء .. بالاضافة للأمثال التى تكلل وجهه الأبيض بالسواد إذا رزقه الله بنتاً .

كنت أصرخ فى الليل من ألم صفعاته التى حفرت مجرى للدموع .

وكنت أحس بأن الليل لم يزل يرمى بقطع من ظلامه الدامس ، على العيون ، فيصيبها العمى .

هل علمته الأرض أن يكون جافا؟ ، أم كان يخشى على عياله من رقة المشاعر ؟.. لم يضحك الا فى الأوقات النادرة .. قمة الحنان أن يناديني ويأمرنى أن أجلس بجواره ، يتطلع لى ، دون أن ينبس بكلمة ، فتقرأ أمى بذكائها نظارته ، تقول : كبرت البنت ، يهز رأسه وينهض تاركا مجلسنا ، يضع قدمه فى (البولغة) ويمشى الى المسجد ، أو ينادى أخى بعد الوصول للباب ، فيأتيه ملبيا ، يدس يده فى جيبه ولما تخرج خاوية يقول له : هات باكو معسل ، بكوزين من الذرة.

ذلك المساء عاد أخى معلنا غلاء المعسل وأن البائعة طلبت ثلاثة كيزان ، فقال معلقا : يا خبرها أسود .وبات بلا تدخين يزفر ضيقه وجنقه فيمن حوله حتى سحبنا ملاك النوم .

كان (الدراع أو المارس) يمتد على مرمى البصر وأبى بعدما أصابه الحظ واستلم فدانين من أرض الاصلاح توقف عن ركوب المقطورة التى يسحبها أتومبيل قديم يعافر صاعدا وهابطا نحوأرض الوسية ..

الأتومبيل الأحمر الباهت ، توقف .

انتهت أيام الوسية ، وذهبت الى غير رجعة .

انقشع معها جبروت العبودية ..

قامت الثورة ، وانطلقت الأغانى ، وسمع الناس بقوانين الاصلاح الزراعى الجديدة .

بين مصدق ومكذب ، انتشرت الأغانى .

الذين يمتلكون أرضا ولهم حيازة باسمهم ، لم يحصلوا على أرض من الاصلاح .

جدى بعدما استلم فدانين بزمام بردين ، تم سحبهما منه لأنه يمتلك نصف فدان .

كانت الثورة تعتنى بالفقراء والمعدمين .. هؤلاء الذين عانوا ضنك العيش وقست عليهم الحياة وأذاقتهم مرارتها مئات السنين .

كان أبى لا يصدق عينيه ، يظل يتأمل الأرض ويبتسم ، لسماع أخبار حلوة عن القطن.

جلس الفلاحون على المصاطب يتحدثون عن ناصر ..

ناصر يا حبيب الملايين .

والقطن فى (مارس) الاصلاح تفتحت لوزاته ، رأيت ابتسامة أبى ذلك اليوم حلوة دافئة ، أطيب من طعم العسل وأرق من النسيم .

فى ذلك اليوم مرت اللجنة على مارس القطن .

كان يوم السعد لأبى ولى .

كنت معه دائما ألست أكبر اخوتى .

سجلت اللجنة فى دفاترها أفضل الأراضى وأجود الأقطان .. سجلت أصحاب الأيادى الشقيانة من الفلاحين الشطار .. وذاعت عن طريق رجال الجمعية أنه سوف يتم إقامة حفل تكريم يحضره الريس بنفسه ويقوم بتسليم الفلاحين اللذين أسعدهم زمانهم وسجلت اللجنةأسمائهم .. الجوائز المالية الكبيرة .

كان كل شيئ فى ذلك الوقت كبيرا ، له قيمة الجائزة كانت عشرة جنيهات ، قيراط الأرض الملاكى لم يتعد العشر جنيهات .

قيراط الأرض المزروع اليوم تجاوز العشرين ألفا .

من محصول القطن كان يمكن للفلاح أن يزوج ابنته .

وكان الزمان حلو يحنو على الناس يا ابنتى .

ذلك اليوم .

يوم التكريم .

كنت بصحبة أبى .

وكان الضابط الذى حاول منعى ولم يتمكن ، وصعدت بجوار أبى وأشار الريس للضابط فتركنى ، وعندما اقتربت منه وصار بينى وبينه خطوة .

توقفت .

سلم أبى الجائزة وهو يتابعنى بابتسامته الرائعة .

أتأمل طلعته البهية والدموع تتدفق من عينيَّ . أشار لى فاقتربت منه على استحياء .

وأحسست فى عينيه بحب وحنان لو توزع عل الدنيا كلها يكفينا .

كمن يشكو من كل آلام الدنيا كنت أشتكى له مرارة الفقر والخروج من المدرسة وال..

انحنيت وقبلت يده .. هبطت دمعة حرى على يده ، رفع رأسى ، وأخرج منديلا أبيض ، ومسح دموعى

دموع السنين الحبيسة كانت فى انتظاره ، صار الآن أبى أستطيع أن أبكى على يديه ويجغف دمعتى .

وصار هو كل أهلى وسندى ، لم أتخيل مقدار وسامته ورجلوته وأبويته التى حلت على ربوع مصر والدنيا كلها .
من أجله ارتفعت الأعلام وانحنت الرؤوس وغنت الأرض على ايقاع صوته ، الحصى فى الأرض ذاب وتجلى بأحلى الثمر ، والقطن فتَّح فى الغيطان .
منذ رفع بيده رأسى أحسست أنها سوف تظل شامخة على مر الأزمان .
عندما استدرت هابطة درجات السلم تلاقت عيناى الدمعتان المحمرتان بعينى الضابط الذى حاول منعى .. كنت متوجسة منه .. لكنى رأيت فى عينيه ابتسامة ملؤها فرح طفولى جميل ، ورأيته يأخذ بيدى ، ويقول بكل أدب ومودة حقيقية : على مهلك يا عروسة .
هو ليس غاضبا لأننى خالفت أوامره وصعدت للتسليم على الريس ، بل فرح ، ويكاد يحملنى من فوق الأرض ، أستطيع أن أجزم أننى رأيت فى عينيه اللتين لمعتا فيهما الدموع مثلى تماما .
هل كان يكتم شكواه هو الآخر ، هل عانى أبوه وأقرباؤه من كرابيج السخرة والاستبداد ؟

.....

ولم أصدق عينى حين رأيته مرة ثانية بعد يومين تقريبا ، فى دارنا ، جالسا مع أبى فى المندرة ، نفس الضابط الذى لمعت عيناه بالدموع مثلى .

يوم حفل التكريم .

(2)

جارتنا الرحيمة التى أهدتنا المقعد المعدنى المتحرك زارت أمى قبيل الظهر .. حين كنت فى الجامعة ، وجلست لتؤنسها .

قالت أنها تساندت على داير السلم ، وطرقت الباب .

فتحت لها أمى .

ولما لم تجد أمى حلا للرد عليها لجأت للورقة و كتبتْ لها: أنها كانت تتمنى تقديم واجب الضيافة لها ، لكنها لا تتمكن من انجاز أى عمل على البوتاجاز (ولم تقل نظرا لسمنتها ، وأن ما تشغله من مساحة على المقعد يحول دون اتمام أى شيئ)

قدمتْ لها عصير الليمون بعدما استعانت بها باشارة من يدها .

ولأن الجارة لا تجيد القراءة ، فقد سألتها : أتريدين شيئا من البقال يا ابنتى ؟؟؟

هزت أمى رأسها بالنفى ، واستعادت منها الوريقة ، بينما الدموع تسحبت على مهل ، دموع العجز ، وانفطاع التواصل مع العالم .

تعلم الجارة العجوز أن الجلطة أفقدت أمى النطق ونصفها (التحتانى) أصابه الشلل .

كما تعلم أن زيارة المريض يجب ألا تطول ، وألا تمس جروحه ، أوتذكره بآلامه .. وهذا ما لم تفعله الجارة دون قصد .

قالت لأمى : لا عليك يا ابنتى .. واصبرى على بلائك ، وكله فى ميزان حسناتك .. الانسان إذا حمد الله وشكره ، سجل اسمه مع الصابرين ، الصابرون لهم الجنة .. الله يختبر عباده ..فهل ننجح فى الاختبار .. أعلم أنك ليس لك سوى ابنتك منال ..

(تعلم الجارة أن الحديث سوف يكون من طرف واحد ، لكنها أخذت ،تثرثر ، ومع الوقت أعجبتها اللعبة ، فانساقت لا تلوى على شيئ ، ولم تلحظ دموع أمى)

أتعلمين ذهبت قبل يومين لزيارة المحروسة ابنتى فى (أبوكبير) جلست معها عند ناصية المدرسة ، كانت تقعد على حجر وأمامها صاج به الحلويات وخلفها لصق السور كراتين الشيبسى والكارتيه بأنواعها .. الزمن يغير كل الناس حتى ابنتك التى قمت باطعامها فى فمها بيدك ، البنت تتعلل بعدم القدرة على زيارتى .. طبعا بسبب بيع الحلوى والكارتيه .. أخبرتنى أن الحال لا يسر عدو ولا حبيب ، صار زوجها لا ينفق على البيت والعيال ، يدور كل يوم بعربة لبيع (الجاز) ، لم يعد أحد يشتريه إلا قليلا الغز أدى دوره وناب عنه ، هكذا قال لها .. وما يتحصل عليه ينفقه على مزاجه ..المكيفات لحست عقول الشباب ، أخبرتنى البنت أن العيال لن تجد قوت يومها ، إن هى تقاعست يوما عن الخروج . لدرجة أننى سألتها : يا ابنتى لو أصابتك الأنفلونزا مثلا ماذا تفعلين ؟؟؟

أجابت : أمنع بنتا من الذهاب للمدرسة لتجلس بدلا منى على (الفرشة) ..

ابنتى رزقها الله ببنتين وولد ،

قضيت معهم ليلة واحدة ..وقلت لنفسى كفى ، هى وزوجها والعيال .. خمسة أفواه يا ابنتى تحملهم على ظهرها وتمشى .. سمعت فى الليل أنينها .. ألم المفاصل والفقر تسحب اليها والبرد والفقر والعيال صارت طلباتهم لا حد لها .يعلم الله أن معاش التأمينات لا يكفى أدوية السكر والضغط والمعدة والهشاشة ، لولا الدكتور صاحب الصيدلية يرق لحالى ، لولا أولاد الحلال ربنا يبارك فيهم ، ربما كنت مرتمية على ناصية شارع ، الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ..

هل أطلت عليك يا ابنتى ..

(3)

كتبتْ أمى :

نظرة .

قد نظنها مجرد نظرة .

ماذا يمكنها أن تفعل تلك النظرة فى الآخرين ؟

فى أى انسان .

نظرة المرأة للمرأة تكشف سرها ،

تعريها .

تفضح مكائدها .

تقول لها : أنا لك بالمرصاد

أما نظرة الرجل للرجل تدفعه للتأنى ، للتأمل ..

نظرة المرأة للرجل تفتح له الباب للولوج لعالمها

نظرة الرجل للمرأة اعجاب ، ورغبة خفية .

فهل كانت نظرة الاعجاب التى شعرت بها كافية .

زجاجة (الكازوزة) لا يطلبها أى بيت الا لبهيمة مريضة ، بعسر الهضم ، أو لضيف غال .

ماذا جاء بالضابط الذى استوقفنى بالأمس وحاول منعى من الصعود للريس .

عندما عبرت باب المندرة سمعته يقسم لأبى : والله العظيم ما أشرب الا شايا

.أكان صوت أمى عاليا لدرجة أنه سمعه ، فأقسم أنه لا يشرب (الكازوزة) الكوكاكولا

المرأة تتمتع بحس عال فى كشف سر النظرات ، تمتلك القدرة على سبر الأغوار ، من خلال نبرات الصوت ، تحدد وجهتك ، كانت أمى تتمتع بفطنة متميزة ، ويمكننى أن أضيف .. بحدس قل أن يخيب .

طلبتْ منى ارتداء فستان العيد .

اندهشتُ ، فابتسمتْ وأعادت بصوت هامس بعدما لكزتنى فى جنبى لأذهب وأفعل .. كانت تقوى فىَّ الفطنة وسرعة البديهة ، وكنت أشعر أن دموع أول أمس لم تزل عالقة بين جفنى وهو يمسك بيدى ، ليساعدنى على هبوط الدرجات .

استرجعت نظراته ، نعم كانت كورقة محملة بالندى تخشى هبوط الشمس عليها ، وكنت أنا الندى ذاته ، الدمعة الحيرى ذاتها ، حين تطلعت لعينيى الريس .

ناصر .

الذى مسح دمعتى بمنديله .

فقبلت يده .

.....

قال لى فيما بعد أن دموعى ، فجرت الدموع والحب الذى لا يستطيع وصفه لذات الرجل (ناصر) .. وأننى فى نفس

اللحظة التى كان قلبه مفتوحا على العراء .. على الخلاء ، لحظة غسلت فيها الدنيا كلها دموعى ، محت وجعها ، وأعادت لها رونقها .

أنا البنت الريفية التى لا تعرف عن الحب ، سوى الحنان ، تطيرها كلمة رقيقة ، تماما كما كان (الأمير) يفعل حين يستقبلنى بمودة وحنان ، يهش لمقدمى وينصت لى جيدا ، حين أتكلم .

لا يخفى عنى الأمر الآن .. برغم هذه الابتسامة المحببة لقلبى .. كان ينتابنى القلق ، أن يندم على إضاعة وقته معى،

هل كنت أشعر أننى أقل منه ، أم كان عطر الغنى والقصر الذى يعيشون فيه . الفصر الذى لا يتوقف أهل البلدة عن الحديث عنه . هو ما شدنى اليه .

لا

كان رقيقا معى .

كانت تغيظنى أسئلته الكثيرة وأحيانا أندهش ، أظنه سوف يحدثنى عن نفسه عنا ، معا .

وددت لو أعترف له بقلقى

وأننى فى رعب لو رآنى أحد من أهل القرية معه وأخبر أبى ، القلق كان هو الضيف الغائب الحاضر دائما بننا .

ولم أصدق أنه هو من كشف لأبى لقاءاته بى .

مرت خمسة أعوام .

على العلقة الساخنة التى هشم فيها أبى عظامى .

خمسة أعوام وتسلم أبى الفدانين وزرع القطن وتفتحت لوزاته ثم كانت مهارة أبى حين وصل انتاج أرضه أعلى محصول للقطن هذا العام ، وهو ضمن عدد ليس بقليل من الفلاحين الذين تم ترشحيهم للتكريم

.....

مع (ناصر) أشعر بالسكينة والقلق لا أحس له دبيبا فى قلبى ، ولم يعد يعرف لى طريقا .

مع (ناصر) وهو نفسه اسم الضابط الذى تزوجنى بعد شهر من زيارته لنا ورفضه شرب الكازوزة، . لكنه شرب الشربات .. فى دارنا

ولم أشعر . معه . أبدا بالقلق .

بزواجى منه تغيرت أعراف كثيرة .

صارت البنت الريفية تتزوج ضابطا ومعلما وطبيبا ، تخلت الحياة عن تعقيدها الأجوف ، وسقط المثل الذى دقت أعمدته أمى منذ خمس سنوات فى قلبى (كل فولة ولها كيال) .

الدرويش

(1)

قال لى الطبيب المعالج أن الجلطة المخية عند أمك تقريبا ذابت .

التجمع الدموى الذى انعقد وتجلط فجاة إثر الصدمة . الحمد لله . أذابته الحقن ، والأدوية .

تساءلت : لماذ اذن لم تنهض واقفة سيدى الطبيب

عقَّب : أن أمى بسبب بنيتها الممتلئة ، وسمنتها الواضحة، لن تقوى على النهوض سريعا .. هى مسألة وقت .

لا تقلقى .

انزرع القلق فى قلبى ونما فجأة حتى صار بحجم الحلفاء التى غطت على الحقيقة ، توقفت أمامه أستحلفه الله أن يصارحنى .. لست صغيرة .. أنا فتاة جامعية ...

تبدى القلق على ملامحه وتراجع للجدار عندما تطلع جيدا لى ، ربما كان يحسب حجم قدراتى فى استيعاب ما سيقول ..

انخفضت دقات قلبى وحاولت قراءة عينيه وقسماته جيدا ، ربما استبطن ما يرغب فى إخافئه .. كان طبيبا شابا ويبدو أنه ماهر فى تخصصه .

قال : راجعى طيبا نفسيا .. الحقيقة أن حالة والدتك غريبة .

قلت : وضح أكثر يا دكتور.

قال : المعتاد أنه فى حالة تذويب التجلط يخضع المريض لعلاج طبيعى ما بين شهر الى ثلاثة أشهر ، ربما يتبقى معه أعراض جانبية للشلل الذى يعانيه أو فقدان النطق المؤقت .. وبعد نظرة عميقة فى عينيَّ قال : لكن فى حالة أمك لا أجد تفسيرا علميا .

أصابنى الاحباط فى كل موضع .

من يعرف إذن ؟

قرأ ما لم أنطق به .

كرر ثانية وهو ينهى استفساره الذى طال ، بلا طائل :

: أمك طبيا سليمة تماما ، طبعا العلاج الطبيعى مستمر ..وتابعى كما قلت طبيبا نفسيا ، واستمر فى طريقه كمن يهرب من كارثة سوف تسقط على رأسه .

.....

تغيَّبُ عن المحاضرات فى الأسابيع الأخيرة كثيرا .. كانت (مها) تنقل لى المحاضرات وأحيانا تشتريها من مكاتب التصوير خلف سور الجامعة ، تتابع حالة أمى ، وأحيانا كانت تبكى ، فتساعدنى على أن أترك لدموعى حرية التعبير عن وجعى ، وقلة حيلتى ، كانت ترافقنى فى مشاوير العلاج الطبيعى ، أعتقد أنها أعادت لى الثقة فى الزميلات ولولاها ربما انعقدت بقلبى عقدة نفسية صاحبتنى فى بداية الحادثة وجعلتنى أسهر الليل أعيد تقييم كل حركة ، كل ابتسامة ، كل كلمة ولو كانت سؤالا طبيعيا عن حال أمى ، أو حالى .. لدرجة أن واحدة سألتنى : عاملة ايه ؟

نهرتها على الفور : وانت مالك .

المهم أن مها علمت منى توصيف الطبيب لحالة أمى وهزت رأسها وتركتنى دون تحية ، ولما تأخرت فى العودة .. ظننتها ملت وأصابها القرف من ذكرى المرض وأحوالى .

لكنها فى اليوم التالى وبعد المحاضرة الأولى ، لمستنى فى كتفى وقالت اتبعيننى ..هيا بنا .

سألتُ : الى أين ؟

قالت : مفاجأة .

كان دكتور [علم النفس الطبى] فى مكتبه .
ولأنها اللئيمة لم تخبرنى .. ظننت أنه سيلومنى بسبب اغيبى عن محاضرته ، لكنى وجدت على شفتيه ابتسامة أبوية حنونة ، وترحيب بنا .. ثم سألنى عن أمى .
أجبت
وسألنى
وأوضحت
سردت تفاصيل كانت مختزنة فى الذاكرة .
وأخرى غير هامة فى اعتقادى ، كان يهز رأسه ، وأحيانا يقطب بين حاجيبه .
ونهاية الجلسة ، قال : جميل .
قلت بعفوية : أين الجمال فيما سردت يا سيدى .
قال : لا عليك .
أمك محظوظة يا ابنتى .. ليتنى لى بنتا تمتلك وعيا كوعيك .
القصاصات والوريقات التى استخذت منها وسيلة للتواصل مع أمك رائعة ، المهم الآن .. بل الضرورى هو استفزاز الجرح .

أومأت برأسى ، حتى لا أقاطعه ، أضاف : أن تسألين أمك فى أشياء وموضوعات ، لا ترغب فى الحديث عنها .. نستفزها .

استنتجت : سوف تبكى .

استكمل : مهم .. نحن سوف نستفز الفص الخامل فى المخ .. الذى يرفض فى لا وعيه اللاناطق العلاج .. بل ربما يرفض الحياة ، البكاء ضرورى ، وليس الحزن .. احذرى الحزن أنت تعلمين علاقته الوطيدة بالاكتئاب .. أنت فى الليسانس كما أعتقد ..

هززت رأسى : نعم .

.....

(2)

أفاقت جارتنا العجوز على كابوس أفزعها ، وطير النوم من عينيها ، نهضت وهى تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، أخذت فى قراءة المعوذيتين والفاتحة وقصار السور ، تجرعت من زجاجة الماء التى بجوارها رشفة ، وظل ريقها جافا ،

قامت بصعوبة ، تزييق عظامها لم يزعجها بقدر ما تمددت تفاصيل ذلك الكابوس أمام عينيها ، تنصتت جيدا ولما لم تسمع تباشير الفجر ، ولم يتسرب لها أى ضوء ، حمدت الله أن مارأته ليس رؤى قابلة للتحق . تساندت على الجدران وفى ضوء السهارى الواهن وصلت الى الحمام ، ثم توضأت وتوجهت الى القبلة ، وكانت لم تزل تسنعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وظلت كذلك حتى بعد دخولها فى الصلاة ، الصلاة منجاة للبشر ، غسيل للقلوب وتقرب الى الله ، دعاء وتبتل ، رغبة وتوسل ، تضرع للذى صرف أمور البشر عز وجل .. الصلاة ترياق المريض ، وتلبية للهفة الحيران ، خيط التوحد ، ولغة التواصل ؛ استعاذة البشر من مكائد ووسوسة الشيطان ، عودة الروح للسكينة ، ملجأ للولوج لأبواب الرحمة والمغفرة ، استقواء بالكبير على الصغير ، وبالقوى على اللعين ، استرحام الرحيم والتوسل اليه ، دمعة الملهوف المخنوق ، الذى ضاق صدره من متاعب الحياة ، فأسلم للخاق قياده ، وارتكن لمشيئته ، واستظل بظله .. ظلت ساجدة ، تدعو بحسن الختام ، وحسن الملجأ ، بكت وكادت من فرط الحافها فى الدعاء أن تسقط مغشيا عليها .

لو كان الشيطان يعلم قدر الخير الذى تجنيه المعجوز الآن ما لاحقها بكوابيسه ، وأقض مضجعها ، وحيَّر قلبها .
انتهت من صلاتها ولم يتوقف التسبيح والبكاء ، حتى تسمعت خرفشات ميكرفونات المساجد تستفيق ، استعداداً لنقل الاذاعة .. هدأ قلبها .. أحست براحة روحية ، وأن ما رأته لن يحدث .. بتوقفها عن التسبيح وانصاتها لميكرفون المسجد ، انتظارا لسماع القرآن . لكن الرجل فى الاذاعة أطال ، فلوح الشيطان أمام ناظريها ببعض من تفاصيل من الكابوس
(رأت نفسها محمولة على الأعناق وليس وراءها سوى نفر قليلين ، ومروا بها على الأحواش ، كلها مغلقة ، كان الحر شديدا والعرق يتصبب من حاملى (النعش) والتربى يمر بهم من مدفن لآخر .. ثم يمرق من أمام مدفنها مدعيا نسيانه ، الملعون ، يستريحون قليلا ، ويتركهم من كان له مصلحة ، ونادته الدنيا فترك تشييع الجنازة ، يحملونها ثانية و(التربى) يسير أمامهم ويَّدعى أنه لا يذكر أن لها مدفنا ، يركنون بها فى ظل حوش من الأحواش ، والعرق يتفصد عن جباههم

ولمـا أحسـت بـأن العـرق حاصـرها فـى رقـدتها بـداخل (الصندوق) ، رفعت رأسها ، لتطالع الموقف .

كانت فى صدنوقها ، مغطاة بملاءة مهترئة ، ولا أحد

لا أحد .

ولا تقوى على مغادرة الصندوق .

سلبت منها كل ألوان الحياة ،

والحر شديد .

ولا أحد

لا أحد .....

(3)

(سيف الاسلام)

ابن خالة أمى

والورقة الثالثة فى حياتها

العنوان الثالث لصفحة ترفض الذهاب لحضن التاريخ .

تعافر من أجل الحضور

وكل ما تتمناه أن تستمد ثانية أنفاس الحياة .

لكن هيهات

الأيام تسير للأمام .

والعمر يسير للأمام

والأقدام تسعى للأمام

فكيف يستعيد الزمان دورته بنفس الوجوه ، ونفس الأقنعة ، ونفس الأدوار ؟!!!!.

.....

عندما تكون فى حاجة ماسة للقفز ، انتبه ، قد تسقط فى غير الموضع الذى أعددته خلسة ، فتنكسر رقبتك ، ولكى أفتح الجرح بمشرط طبيبة نفسية ماهرة ، لابد أن تتوفر لى القدرة على تطهير موضع الألم ، والاسراع فى تطييبه .

فهل أنا قادرة على عبور تلك التجربة بمفردى ؟

كنت أتساءل عندما وضعت القهوة أمامى ، وأعطيب أمى كوبا من الحليب .

وقلت لها استريحى .. استرخى تماما .

عودى بظهرك للوراء .

كانت قد انتقلت للسرير .

سألت أمى وأنا ألف ساقيها بالبطانية : متى ستنهضين عفية كما عهدناك.. أم تراك تنتظرين عودة العم(سيف الاسلام) ليأخذ بيدك .

انتفضضت ، وكاد الكوب يسقط من يدها، أظنها رمتنى بنظرة مشحونة بالغيظ وربما نعتتنى بالسخافة ..

أسرعت وأمسكت منها الكوب ، ووجدتها تمسك بقصاصة وكتبت بخط كبير وواضح

(أنت حمارة .. حمارة .... اخص عليك .. اخص ....

.....

وكتبتْ بعد دقائق ظننتها دهرا ، لأننى عدَّلتُ من وضع مذكراتى ، وكتبى على المكتب وقلبت صفحاتها ، وتظاهرت بانشغالى بمراجعة محاضرات اليوم .. وكأننى لم أقل شيئا .

بقيت ناظرة للفراغ ، ثم أمسكت بالقلم وخطت

.....

(كانت أمى أسعد الناس بذكر ابن أختها (سيف) ، وكأنها تغيظنا به ، أنا الذى أخرجنى أبى من المدرسة رغم أنفى ، واخوتى الأصغر اللذين كان يلاحقهم المرض فيموتون فى سن باكرة ، كيف نفلح مثله فى حفظ القرآن .. والحصول

على الأولية، ثم الثانوية ثم السفر للمحروسة ، أم الدنيا (مصر) لتلقى العلم فى جامعتها .

عندما كان يأتى لزيارتنا كنت أهرب من أمامه بمجرد سماع نحنحاته وندائه على الباب ، أتعلل باحضار أى شيئ من فوق السطح .

دائما يفاجئى بأسئلته .. كم تحفظين من القرآن ؟ .. وكم من الحديث ؟

وبرغم أننى أحفظ والحمد لله الكثير .. لم تعجبنى أسئلته المستفزة . أسئلة لا تعنى سوى احتفاظه وحده بالنجابة ، والتفرد ..

كأننى أبحث فى جب عميق لأستخرج ملامحه الحقيقية ، صورته المستقرة فى القلب .

الجب عميق به المسالك والدروب والظلمة لا تمنحنا سوى العماء .

.....

نمسك بأول الخيط لعله يسلمنا لأول الطريق ..

كان الشيخ (عبدالرحمن) زوج خالتى.. يمتلك دارا ضيقة لكن لها باحة واسعة تنتهى بسلم طينى ، من تحته فرن بلدى

وأمامه تنهض طلمبة للماء ، ماءها بطعم السكر ، الدار فى آخر الزقة ، كى تصل اليها لابد من قطع ممشى بالكاد تمر به جاموسة (عشار) وحمار .. فى المرة الأولى التى تبعثُ أمى وهى فى طريقها لدار خالتى ، لتمنحهم وجبة من اللبن وقت الضحى، كل عدة أيام ..

كان الممشى مغلقا بشابين طويلين كأنهما فلقا نخيل .. يسدان الطريق على كل من تسول له نفسه بالهرب من (فلقة) الشيخ عبدالرحمن .. المنصوبة أمام الدار ويمسك بها شابين من مساعدى الشيخ هما من أبرز وأنجح الحافظين للوح .. وسمعنا كما سمعت البلدة كالعادة شابا يجأر من تلاحق سقوط (الزخمة) أو السوط الذى اخترعه الريفيون لعقاب الأغبياء فى التعليم والحفظ آنذاك .

ألجمنى الخوف والزقة مغلقة حتى يأذن الشيخ بفتحها ، والشاب الذى تزوج بعد عامين تقريبا، لم يتوقف عن الصراخ ، صراخه لم يزل فى أذنى حتى الآن ، أعتقد أنه أيضا لم يفلح فى حفظ القرآن ..

كما لم يفلح ذلك الأسلوب فى جعل (سيف) يكمل حفظ القرآن كاملة ، كانت خالتى تقول أنه حفظ (18) جزءا . ووعد أبيه

أن يستكمل شريطة الحصول على موافقته أن يذهب للجامعة فى المحروسة .

لم أصحب أمى فى مشاوريرها الى دار خالتى ، منذ ذلك اليوم .

وكان الشيخ عبدالرحمن أيضا يجيد مهنة (تجليد الكتب) ولأن سيف لم يستكمل الحفظ وأصول التجويد ، لم يتمكن من أن يرث (الكُتاب) والفلقة المعلقة، فى نهاية الزقة ، بعد رحيل الشيخ .

بل كره الزقة وربما البلدة أيضا ، كان يقول ريحها ليس حلو ، أنا أعشق الترحال ، لا أكاد أبلغ بلدة حتى يصيبى السأم ، فأهرب منها الى غيرها .. كل البلاد سواء .. المهم إبلاغ الرسالة ، وتجميع المسلمين تحت لواء واحد ..

(انفرط العقد يا خالتى)

وكان أبى لا يستمع اليه الا قليلا

قال أنه خطب فى المحروسة بجوار (الأمير) ورئيس الوزراء ،

كنتُ أتساءل غير مصدقة ، هل ذاع صيت ابن خالتى الذى ورث عن أبيه فقط مهنة تجليد الكتب .. وصار له شأن فى المحروسة .

ذلك الولد ابن خالتى الذى أعطاه والده مصروفا لينشئ لنفسه مكتبة إلا أنه اشترى عدة كتب ، منها روايات عن المغامرات البوليسية لأرسين لوبين وشارلوك هولمز وغيرهما، وحينما جاء والده وجده ساهراً يقرأ في هذه الروايات باهتمام شديد، تركه ولم ينهه عن قراءتها ولكن حينما انتهى من قراءة هذه الروايات قال : »سأعطيك شيئاً أحسن منها وبدأ يغذيه ببعض الكتب منها سيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة عنترة بن شداد، وسيف بن ذي يزن وبعض روايات البطولة الإسلامية، ثم بعد ذلك دفع إليه بكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز وغيره من الكتب المفيدة ....

كنت أشعر بارتعاشة ، وأحس ببرودة تلازمنى إذا غادرتُ البلدة مع أبى الى (المركز) ، المدينة القريبة من بلدتنا .

عندما أعود أحن الى المقام والأراضى الخضراء والبحر الذى يمر بالبلدة .. السواقى وأشجار التوت والجميز والكافور ، و(الرومس) حين نعبر فوقه النهير الصغير للعزبة القريبة ، كنت ولم أزل أحن لرائحة التراب فى الشوارع ولأبى قردان وهو ينقر فى الأرض عدما تجرى الماء فى القنوات ، وتأتى حتى القطع الذى سواه أبى فى القناية ، داخلة الخطوط وحول المصاطب ، أدير لأبى الساقية ، وأقول فى الليل وحيدة : نعم يا عمى .. أيووه يا أبى .. مخافة اللصوص والنوم .

أقول لأبى : لماذا لا نروى الأرض فى الليل يا أبى .

يقول : يفيض الماء ليلا يا بنت .. نروى الأرض (بالراحة) لم أكن أفهم .. ولا أجادل . أبى عصبى ، لا يؤمن بالكلام ، فقط يؤمن بالعمل ، أتوجه لأمى وأسألها .. أمى هى معلمتى وأستاذتى فى الحياة .. هى من طببت جروحى وألهمتنى الصبر حتى تزوجتُ .

رحمك الله يا أمى .

كيف لا أحن للبلدة

وكيف أغادرها .

لم يخطر ذلك ببالى أبدا .

الضابط

(1)

صرت لا أسمع الأصوات خارج الشقة ، أنا وأمى كائنان فضائيان لا ينتميان الى هذا الكوكب ، تمكنت من من دفع أمى لحافة البكاء ، لشد ما اهتزت أوتار قلبى ، وذهبت الى المطبخ ، أو الغرفة الثانية ، لأبكى ،أستعيد ترتيب الأحداث ، وشحن بطارية الذاكرة ، البكاء السرمدى الذى يسحبنا الى هوة بلا قرار ، لم يستهوينى ، برغم أنه كان يحلق كطائر الرخ فى فضاء حياتنا ، كان يترك مسحة سميكة من الضباب تغلف الأشياء والعلاقات لبعض الوقت ؛ لكن سرعان ما تنكشف السماء عن شمس خريفية دافئة ، وقادرة على إضاءة العالم بتفس الدفء .

أخذت فى تجميع الأوراق التى كتبتها أمى ، ولحقت بأوراق كادت تمزقها ، كما قمت بجمع أشلاء من الوريقات ، تعبت فى تجميع أجزائها .

توجهت لها ببعض الأسئلة المخجلة والوقحة أحيانا ، كانت الاستفسارات باهتة ، باردة كماء الشتاء .

فى بعض اللحظات علقت أمى على ذلك ، وكتبت لى (من قال لك أن تفعلى معى هذا ؟)

سألتُ :

ماذا تعنين ؟

كتبت : تجرحين مشاعرى الى هذا الحد ؟!!

لم أجد إجابة . فقط احتضنتها ولمعت عينى ، فكانت نوبة البكاء التى حاصرتنا كافية لابراز وجلاء الموضوع لأمى ، الجميل أنها لم تتراجع ، بل استمرت فى تسجيل ما يخطر فى بالها ، وأخذت على عاتقى جمع كل ذلك . وتحليله ، وتفنيده بدقة . ثم إعادة صياغة أجزاء منه بشكل يسهل على المعالج أو الباحث استنباط النتائج ، ووضع خطط جديدة للعلاج .

كانت العلاقة بيننا وصلت أرقى درجات الصداقة بين أم وابنتها ، قراءة العينين ، الاحساس بالسحب اللامعة فى العين ، تربت على ظهرى ، لأركب مركب الصبر ، والاحتمال . لأستعيد قواى ، سوف تظل الوحدة قاسية .

الوحدة كافية أن تجعل الجدران مقبضة خانقة ، ضيقة ، بل قاتلة .

الجدران بجفاء شديد أطبقت فى الليل على جارتنا الرحيمة ، وظلت تضغط عليها حد الاختناق .

(2)

كتبتْ أمى

الطائر المحلق فى الخمسينات والستينات ، يرفرف فوق ربوع المحروسة ، يرفرف بجناحيه على أراض تم استصلاحها حديثا، مزيد من الترع والقنوات والمصارف ، والجسور ، تقل البطالة ، وتتوفر حياة للجميع كريمة للجميع ، يتم تفتيت الاقطاعيات والوسايا بقوانين الاصلاح الزراعى ، فتتعدد الملكيات الخاصة ، وتتوزع الأفدنة على أبى وأمثال أبى ، المدارس تفتح ذراعيها لتمحو سنوات العتمة والجهل .. فى القرى، فى العزب وفى الكفور تنتشر الوحدات الصحية.

من هذا الطائر القادم من صعيد مصر يرفرف محلقا ، فتنبت المصانع هنا وهناك ، الثقيلة منها والخفيفة ، الصغيرة والكبيرة ..

ويذكرنى زوجى (ناصر) بلحظة الحب النى انبطعت فيها ملامحى فى قلبه ، وقت أن شققت الصفوف ، وصعدت رغم

أنف الحراس ، وهو على رأسهم ، وأقبل يد الريس ، أبكى على يديه ويمسح دموعى .

قال لى فى لحظات الفضفضة أن خاله الذى قام بتربيته بعد وفاة أبيه ، كان يعمل (جناينى) عند أحد الأغاوات الكبار ، وأن الكاتب المعروف يوسف السباعى كان يعرف القصة فكتب روايته العظيمة (رد فلبى) التى صارت فيما بعد أحداث فيلم (شكرى سرحان ومريم فخر الدين) (على وانجى) ابن الخولى وبنت الباشا .

من قضى على هذه الثنائية ؟

وجعل الناس سواسية من حقهم أن ينالوا حقهم فى التعليم وفى العلاج والعمل وأن يحيوا حياة كريمة تليق بالانسان .

(3)

السيدة "نرجس" سيدة سيدات الدنيا ،

أمى

مرفأ الأمن

وقلعة الأمان .

من عرفها ، وارتمى فى حضنها ، مرة ، ابتسمت له الحياة ومن شرب من يدها كوبا من الماء ، ونظر لبحر الحنان الدفاق فى عينيها ، تمنى أن تكون أمه .

أمى التى جعلت كل عيال البلدة عيالها ، احتضنتهم ، قبلتهم ، دمعت كلما رأت أماً تحتضن وليدها ، وتدلله ، فاضت عيناها بالدموع .

ظلت نيف وعشرين عاما تحلم بفرع ينبت من شجرتها اليانعة الخضراء .

ظلت ليال ليس لها أول ولا آخر تبكى وحيدة قدرها دون اعتراض ، تحمد وتشكر وتصلى وتدعو ، وتنذر النذور تلو النذور .

حتى حلت مشيئة العاطى الوهاب، بعدما كان اليأس يتسرب لها مع تسرب الشعيرات البيضاء لشعرها ..حتى جئت أنا حسب الموعد والميعاد .

منحتنى اسم (منال) لأن الله منحها ما كانت وتتمناه وتحلم به .

.....

بعد النكسة بأسابيع ترك أبى الحراسة الخاصة بالريس .

كانت عمليات التغيير فى القيادات ، تسير على قدم وساق ، وكان الشخصان اللذان تقاسما نفس الاسم (ناصر) طيلة كل هذه السنوات ، قد آن أوان الانفصال .

أبى الذى تغلغل فى قلبه حب الزعيم حتى صار عشقا .

انكسر فجأة .

زاغت عيناه وألمت به نوبات بكاء حادة مرضية ، صار يهشم كل ما تقع عليه يداه ، وقالت أمى أنه أصابته الرعشة لبعض الوقت .. خلال ذلك الوقت ، ترك الحراسات الخاصة.

قالت أمى أنه ترك الخدمة برغبته ،

وقالت الناس : كل البطانة حتى الحرس ، تم التضحية بهم .

ارضاء للغضب الشعبى .

وانتشرت الشائعات فى البلدة .

عن خروج أبى من الخدمة فى حركة التطهير .

صار أثناء سيره يتجنب أهل البلدة ، وينظر الى لأرض ، وبقلبه نار تتقد .

لم يطل المقام به على هذه الحال طويلا ..

أسر فى أذن أمى برغبته فى شم الهواء على الترعة معها ، وكانا لا يتخذان القرارت الهامة فى حياتها الا بجوار آخر ساقية على الترعة .

العصر آخر محطات النهار ، يداعب نسمات الغروب ويلاطف التوتة التى تظلل الساقية ، قبيل الرحيل .. صفرة المفيب تبعث الذكريات من مرقدها ، وتنفخ فى الرماد ، ةانتظر سؤالها كثيرا ، عنا ينوى فى قادم الأيام ،

كانت خائفة من شيئ ما ، حجم الخسائر التى أسر بها اليها أمام الساقية ، غفرت له نوبات بكائه .

وأخيرا نطق : نرحل عن البلدة

ولما استطلعت إجابة مقنعة عن سبب ذلك القرار .

قال : لا يكمن أن أسير مطأطئ الرأس طويلا .. لابد أن أفعل شيئا والا سأنوت مختنقا بثأرى من أولاد الحنازير .

أمى التى لو وضعت الشمس فيى يمينها والدنيا كلها فى يسارها ما تركت البلدة ، آمنت بدموعها وحبه لها وللبلدة .. وحزمت أمتعتها .

كانت جدتى وجدى غير راضيين ، ولا يعرفان ، حقيقة الخسارة ، وحجم الجراح التى نكتشفها يوميا ، كانت الدنيا

بالنسبة لهم لا تتجاوز حدود الغيط والساقية والبهمية ، والتسليم لقضاء الله ، وترك الأمور الصعاب لأصحابها .

لذلك لم تفهم جدتى وبكت ولولا غضب زوجها ما فارقت ابنتها (أمى) وحزمت بؤجتها وسبقاهما ، ولولا خوفها من جدى لعرضت عليه مرافقة ابنتها وزوج ابنتها .

ألم تصر هى على الضابط زوج ابنتها أن يعيشا معهما فى البلدة منذ زواجعها ، وقالت وهى تبلل الأرض بدموعها أمام العريس الضابط : فقدت كل أولادى صغارا ،، منهم من مات رضيعا ، ومن مات فطيما ، ومنهم من لم يبلغ الحلم .

. وأضافت .. كانت أنفاسها تغادر رئيتها بالكاد ..

وقالت له : لئن حرمتنى من روحى ، ونور عينى سأموت فى نفس اللحظة التى تغادران فيها البلدة .

وافق أبى على العيش ببلدة أمى .

تجاوز كل العادت وحط على تراب بلدتنا كطائر محلق ، وكان ملجأ وأخا ورفيقا لكل البلدة .

كيف يسير بينهم وهو غير قادر على الدفاع عن اتهاماتهم ؟؟

قال لأمى : أنا أموت مختنقا فى البلد كل يوم 24 مرة .

وحزما أمتعتهما وغادرا البلدة .

حطا بالاسماعيلية .

جمع من رفاقه ما استطاع وبدأ فى تدريب الشباب على العمليات الفدائية ، وكانت هذه اللبنة التطوعية ، هى بواكير حرب الاستنزاف التى أذهلت العالم .

الدرويش

(1)

عانت أمى من بعض العصبية ، نتيجة كثرة الأسئلة المستفزة التى كنت اوجهها لها وأهرب لأى مكان آخر بعيدا عنها .. ووضح هذا فى معاملتها لى ، كأنها تلوم رفيقتها وصديقتها على اجتياز كل الخطوط الحمراء والسباحة فى العميق .. هى نفسها كات تخشى هذا اللون من السباحة الذى قد يؤدى الى أمواج تلو الأمواج حتى الموت .

تدمع أحيانا لكنها تتحدى فقدان النطق .

تهم أحيانا بالنهوض ، فأفرح حتى لو كان نهوضها من أجل صفعى .

أمى يا رفيقة عمرى ودربى ، أموت كى أراك واقفة على رجليك ، سائرة وسط الناس فى الشوارع ندور معاً على المحلات ، نتسوق ونضحك ونجد أبى فى البيت قد عاد من سفراته .

تتراجع كل الكوابيس التى ألمت بحياتنا .

أنسى زواجك من الشيخ (سيف الاسلام) ابن خالتك

حتى لو كان زواجا مع ايقاف التنفيذ ،

أنسى دموعك فى الليل ، تبكين حبيبا وشهيدا راحل .

تغضبين من زوج يمر على زوجاته كمن يمر على قطيع من البهائم مشدود الى المداود .

كيف حدث كل ذلك ؟

وكيف مات أبى ..

لم نعثر له على جثة .

لغز موتك يا أبى ، سيتكشف مع الأيام

فقط تنهض أمى واقفة .

وسوف نلملم أجزائك (مثل ايزيس) . أنا وأمى . ونودعها النهر، وندعو أن يعيده للحياة

يا خالق النهر والحياة

يا إلهى منذ قديم الزمان .. مهما تغيرت فى الأساطير والتواريخ أسماءك.

أنت الاله الحق

أنت من بعث الحياة على ضفاف النيل .

أعد الى أبى معافاً ، كى أراه

وامنح أمى العافية .

امنحا يا إلهى الحياة ،

ولا تتركنا فريسة للمرض .

وللموت

.....

ولزوج أمى

الذى بالكاد يعرف اسمى .

ولا يعرف فى أى سنة دراسية ، أدرس .

ولا يعرف عن أمى منذ سقطت . بالصدمة .

شيئا .

الدرويش لا يعرف سوى مريديه .

يسعد بتجمعهم حوله فى حلقات .

ولا تزكم أنفه رائحة البخور .

فقط يبتسم كـ "بابا نويل" .

كملاك هبط من السماء ،

كيف يوارى نصفه البشرى .

هل سيكون مضطرا للابتسام ، الابتسامات والبخور ، والقلوب الساعية لتغليب الملائكى على البشرى .. تسعى ، سابحة ، راجية ، آمنة .

ويظل الغضب البشرى ، مختبئا كنار تحت الرماد .

رماد خامل أمام الجميع مع هبة ريح مواتية ، تنفخها أفواه مدربة ، نفخة واحدة بقوة ، وبغل كافية لايقاظ النار ، واشتعال العالم .

(2)

كتبتْ أمى ..

لم نتشاحن أنا وأبيك منذ زواجنا الا مرات قلائل ، وسرعان ما أبتسم له ، فيحس باعتذارى ، أو يقترب منى ويأخذنى فى حضنه ، تتلاقى العيون بذات النظرات ، تسترجع تاريخ النظرة الأولى ، تتجاوز نظرة العتاب سريعا ، كسحابة صيف ، نتخطى عتبة الخصام ونرتمى فى حضن بعضنا ، ربما نبكى فى صمت ، نتواعد ألا تتكرر .

الا هذه المرة...

المرة التى دخل علينا فوجدنى أضحك بصوت عالٍ وأمى تقول له لسيف الاسلام : يخرب شيطانك كفاية .. يا شيخ .

ولا يتوقف عن سرد الحكايات بعض الدراويش الذين غشيتهم الحماقة ، فقاموا بالوعظ فى بلدة نائية وطالبوهم بالتخلص من كل بدعة ، وأن كل محدثة بدعة

أليست صناعات الغرب مستحدثات .

وتمادوا فى غيِّهم .. واحدا بعد الأخر ، حتى وصلت المغالاة فى العداوة ذروتها .. فطالبوا أهالى البلدة بالعودة للعهود الأوائل ، العودة لأيام الناقة والجمل.. والتخلى عما يقدمه الغرب .. فما كان من أهل البلدة الا أن قام بعض شبابها بتكسير دراجاتهم البخارية التى جاءوا بها الى البلدة .. ولما نهضوا عائدين وشاهدوا ما حصل لدراجاتهم عابوا غفلة البلدة عن صبيانهم ، فاقترفوا ما اقترفوه فى حقهم وهم أهل الهداية والـ ... فتقدم رهط من الشباب وقال لهم بل نحن من فعلنا ذلك بدراجاتكم المبجلة

ـ لماذا يا شباب ؟؟!!!.

أجاب أحدهم ساخرا : أليست الدراجات اختراع وصناعة الغرب .

ثم جاءوا لهم بالحمير ، وقالوا : هيا اركبوا هذه الحمير وتبا للغرب ، ودراجات الغرب .

.....

كان الشيخ سيف يجلس على المقعد المفضل لزوجى .. ولما دخل علينا ، ألقى السلام ، ودخل ليغير ملابسه ، فغشيتنى

موجة من الضحك على العقول البلهاء .. ولم أذهب لزوجى كى أباشر طلباتهم ، وخاصة أنه عائد من سفر ..

كيف تشاغلت عنه ؟؟

وكيف فسر ذلك ؟.

قال لى ذات مرة أنه لن ينسى ما قالته أمى عن رغبة الشيخ فى الزواج منى ، ولم أفهم ما كانت تسعى أمى له وقتذاك ..

قالت : لأجعلك غالية فى نظر زوجك .. وأضافت أن الغيرة تجدد الحب .

لكن حبيبى أسرها فى نفسه ولم يبدها لأمى .

ولا للشيخ .

صارحنى ذات مرة .. بعدم رغبته فى مجيئ ابن خالتى لداره .

قلت له غاضبة : عيب .. كيف أمنع قريبا لنا يودنا ..

قال : هى رغبتى لو كنت تحبيننى .

.....

اختفى الشيخ بعد ذلك سنوات .

دارت الشكوك حول زوجى .

قلت لنفسى ، قبل أن تنطق بها أنى ، "أمعقول أن يكون هو من دفع به لغياهب السجون ." ؟؟؟

(3)

كان الشيخ سيف يظهر فجأة ويختفى فجأة كصقر جارح ؛ وعكس الصقور التى تهرب منها الفرائس ، كانت فرائسه تأتيه طواعية .

وقلت له لما دق بابى : يا شيخ سيف لا تطرق بابنا مرة أخرى.

تغيَّر وجهه . ثم قال أهى أوامر الضابط .

أضفت باصرار ورغبتى أيضا.

قال كأنه لم يسمعنى : أحببتك كما أحب (عنترة) ابنة عمه .

كتمت غيظى وقلت له : وأنا أحب زوجى .. وأعشقه ، ملأ الحنق والغضب عروق رقبته ، تلفت وراءه خشية سماع أحد دراويشه الصفعات التى انطلقت من فمى .

فمى الذى توقفت كلمات الاعتذار فيه يوم عاد وسمع ضحكاتى ،

يوم ادعت أمى أنه كان يرغب فى خطبتى ، وقالت : كانا لبعضهما منذ الصغر .

أمى التى جاءت لتكحل العروس ، فأعمتها .

وبذرتْ بذور الشك فى قلب زوجى .

ولم أنطق .

وتركتنى . غضبانا . فى دار أبى شهرا كاملا .

ثلاثين يوما بلياليهم .

كنت أرقب الشارع وأهمس بعشقك للريح ، لعلها تعيدك لى.

كل هذا أنت السبب فيه يا ابن خالتى ،

لأعترف أننى لم أفكر فيه ولم يدخل دوائر روحى من قريب أو بعيد ، بل كنت أنفر من تباهيك بذاتك ، أنت الشاب الذى يدرس فى الجامعة وأنا البنت التى نزلت عن سلم التعليم بعد درجتين ، يكفيها أنها تفك الخط ، يكفيها ما تحفظه من القرآن ، يكفيها أن تلد وترضع ، وتنتظر هلول الزوج .

يكفيها أن تكون أمة من عصور الجهل والحماقة .

آ...ه يا أبى .. أبـــدا لن أسامحك فى هذا الموضوع .

.....

وظهر بعد سنوات

لم أحصها لأنه ليس من أتباعى ، ولست من مريديه

خرج الشيخ سيف

واتطلقت ألسنة البلدة فى (التلسين) ونشر الشائعات .

أن واحدا من إياهم وشى به ، فى الليلة التالية لمشاجرة زوجى معى .

وأن (سيف الاسلام) رأى الأهوال .

واحتمل ما لم يحتمله بشر .

وصلت أمى بحكاياته حتى دارى وأخذت تبكى ، كانت تشفق جدا عليه لأنها ساهمت فى رعايته بعد رحيل خالتى وزواج الشيخ عبدالرحمن أبيه من صبية من دور أولاده .

هل اقشعر بدنى من هول ما حكت أمى عن بشاعة التعذيب ، وأساليبه .

ودت لو سألت زوجى عن مدى صدق ما حكته أمى ، كنت لا أنام الليل أتخيل أناسا معلقين من أذنابهم ، يقرعون بالمطارق ، وتذوب أجسادهم فى غلايات كبيرة ، تصل أسلاك الكهرباء لأعضائهم الحساسة ، كنت أشم رائحة شياط لحومهم فى أنفى حتى أعيتنى الخيالات .. اصطحبنى لطبيب نفسى معرفة .

ولما طلب خروجه ليسألنى عن بعض الأمور.

قال لى : لست مريضة مرضا عضويا ؟؟ فما هو الموضوع .. وجدتنى أنفجر باكيه والصور تتلاحق فى مخيلتى ..

هدأنى بكوب من الماء .. وانسابت أحزانى على مكتبه وعلى أرضية حجرة الكشف وخرجت رائحها من النافذة للشارع فبكى السائرون فى غفلة ، أو هكذا أحسست .

يا إلهى .

أيوجد على أرضك وتحت سمائك كل تلك الظلمات وأنت صابر ، لماذا لا تنزل غضبك وعقابك على الكافرين برحمتك وبالانسانية ، وبحق الحياة .

الضابط

(1)

تعافت أمى

واستراحت لما أحست بلمعة الصفاء فى عينيَّ أبى .

وصلتْ معها الأمور أنها كانت تتحاشى رؤية أى بدلة ميرى.

وكان أبى يعلم أن الشيخ هواليبب ، هو من بالغ فى جعل الصورة سوداء .

وأشاع فى عز النهار الاشاعة تلو الاشاعة عن قدوم زمان تنتشر فيه المجاعات ، وتنفتح فيه أبواب القبور لقبول أصحاب الحق ، رجال الله ؛ وأنصار شريعته . بينما الظلام يحل على البلدة وقت النهار ، حتى لا يرى القادم فى حلكة الظلام كف أخيه العابر بجواره ، كانت المنابر تهتز من تعداد ألوان المظالم . وأبى لا يجيب نداءات رجالات البلدة لشرب الشاى ، أو الثرثرة عن الأوضاع الأمنية والظروف السياسية خاصة بعد موت ناصر ومقتل السادات وخلع مبارك .

غلبت الثرثرة ، وصارت للأكاذيب أجنحة ، كما صار للشيخ سيف سفراته واختفاءاته المريبة .

ظل مراب طا فى الميدان ، ومعه بطانية وحشداً من مريديه .

كما ظل أبى مع رفقاء الخدمة يحرسون الجموع فى الميدان .

أبى الذى خرج من الخدمة منذ سنوات بعيدة وتقاعد . رغما عنه أو بارادته . لم يترك المحروسة يوما ، كان يعمل بشركة للحراسات الخاصة كمستشار أمنى .

وأشاع الشيخ أنه شريك فى تلك الشركة وأنها تقوم بأعمال غير نظيفة لمصلحة النظام .

كنت فى الثانوية وكنت أسأل أبى ، فيبتسم أشعر بصفاء عينيه ، وترحل الأكاذيب ، تغادر فضاء بيتنا .

انتقلنا الى المدينة وأنا طفلة .. انتقلنا بعد رحيل جدى وجدتى ، انتقلنا والشيخ يلاحقنا فى كل مكان ، نحط فيه رحالنا .

أكان أبى يهرب من الشيخ أم يهرب بأمى منه ، ويخشى عليها من أطماعه ؟؟!!!

.....

لم تعرف أمى منذ تزوجت شيئا عن شغل أبى .

أخبرها منذ اليوم الأول أن السرية هى أولى مبادئ إنجاز أعماله .

كان قليل الكلام ، لكنه مقنع .. وكان يقول : ماكينة الحقيقة لا تطحن الأكاذيب ، بل تسقطها دائما .

تروس الماكينة لا تدور بماء عكر .

هكذا يتكلم أبى.

ويسوى خصلات شعرى ، فرحا بى ، ويصمت .

: لماذا تصمت يا أبى ؟.

تقول : أخشى أن أتركك وأمك وحيدتان فى هذه الدنيا .

أرتمى فى حضنك وأبكى وتنضم أمى لموكب البكاء ، تهدهد حزننا القادم .

أكنت تمهد لنا طريق الرحيل .

توقظ بقلوبن ا أجراس التوجس .

تجعل أمى لا تفارق الشرفة .

أمى تعشق الدروب التى كنتما تسيران فيها ، تسترجع الذكريات ، عبر ألبوم الصور .

إذا قلت بشكل عابر ، مررت اليوم وزميلاتى بشارع (كذا) ، تنهدت على مقعدها المعدنى ، واستدعت موقفا جرى لها وهى بصحبتك يا أبى .

فى كل التفاصيل تطلع سيرتك .

يا أمى أنت الآن على ذمة رجل آخر

تشيح بوجهها قائلة : يغور .. وتغور سيرته .

(2)

باصطحاب أبى لأمى وزيارة الطبيب النفسى .

وتعافيها .

تبقت نقطة (متورمة) كمرض خبيث زار جسد أبى ولن تشفيه الوعود .

أحسست به يفكر فى أمر جلل .

عندئذٍ يغلق الغرفة على نفسه بالساعات ولا يقرب الطعام .

ولا يستطيع أحد اخراجه من عزلته

يخرج مبتسما فنشعر أنه نوصل لنتيجة

هل كان يفكر فى خطر استغلال الشيخ لغيابه

أيترك عمله ليحرس بيته ، وليمنع زيارة الشيخ لابنة الخالة / زوجته .

دوى الشائعات صار يصم الآذان ، بل صارت رسوما على الجدران ..

كان مقتنعا أن بعضها صحيحا ، لأن المرحلة الماضية حملت أخطاء بالجملة من بطانة العرش ، وتراجعت فى السنوات الأخيرة البلدة تراجعا قد يؤدى لانهيارها ، كل ذلك تم مناقشته ، داخل جنبات المجلس ، فى منتهى السرية .

سقوط البطانة ، يستوجب سقوط النظام .

ليسقط .

لكن لابد أن تظل أعمدة الخيمة منتصبة ، حتى لا يتهدم المعبد على من فيه ، وتخرب البلدة .

السوس لا يتوقف عن الانتشار .

السقوط هو السقوط

ليس له اسما أو رسما آخر .

.....

تلقينا خبر استشهاده وفرقته فى نقطة مرورية بعيدة فى سيناء ،

نقلت الخبر وكالات الأنباء ،

جيئ لنا بأفرول ممزق .

وجيئ لنا

وجيئ

وسقطت أمى

لولاجارتنا الرحيمة التى لحقتنا بالمقعد المعدنى اللامع ، لسقطت أمى على الأرض .

.....

وجاء الشيخ سيف الاسلام ببعض أقرباء أمى .
من عائلته .
واضح أنهم متفقون .. يتحدثون بلسان واحد .
وكانوا على عجلة من أمرهم ،
لم يسألوا عن صحتها ،
عن سقوطها عند سماعها خبر استشهاد أبى .
واجب العزاء لم يقدم
يا إلهى لطفك .
هل كانوا ينتظرون رحيله بفارغ الصبر .
فرضوا الزواج على أمى
(لا يحق لأرملة فى عائلتهم أن تبقى أرملة)
(الأرملة مطمع).
أزاحوا المسئولية عن كواهلهم ..
واستراحوا .
نفخوا صدورهم .. واتفقوا
عرضوا الموضوع وتساءوا وتحصلوا على موافقة أمى
أليس السكوت علامة الرضا
كنت أبكى فى الغرفة وحدى

وكانت أمى تبكى صامتة .. فى حضرتهم
أسلموها للشيخ بعقد زواج .
بينما كانت الشمس تميل ساقطة فى بحر الظلمات .

(3)

(الموت لا يخيب أحدا يترصده)
وكان أبى يقول أيضا لأمى ، كى يخفف قلقها عليه .
أنا رأيت الموت يمشى عن يمينى وعن يسارى ، ومن فوقى ومن تحتى ، ومع ذلك كان يغادرنى بعدما يطبع فى قلبى ابتسامة أعرفها .. وهو يقول لم آت لك .. ولو جئت لك ما خيبتك .
وكان أبى حاضرا فى قلبى وفى عينيى أمى ، على الجدران صوره وفى الدولاب ملابسه ، وتحت السرير حذاءه ، وفى الحمام منشفته .
حاول الشيخ تغيير خريطة الشقة ولم يجرؤ
كلما امتدت يده تسبقه نظرات أمى اللائمة .
يحضر أثناء غيابى .

أرى الدموع فى عينيها عند عودتى ، أعلم بمجيئه ، رائحته تفوح فى الأرجاء ،

الدارويش فى كل منعطف يترقبون مجيئ ،

هل كان يتحاشى لقائى ؟!!

نعم .

قال أقرباؤه أنه زواجا لوأد أية شائعات فى مهدها .

وقالوا : زواج على الورق فقط .

وقال هو ليقنع أمى ، ويحصل على موافقتها ..هو زواج مع ايقاف التنفيذ .

وقلت : لا .

لكن لم يسمع أحد منهم صوتى .

لا .

خرجت للشارع وقلت :لا

وقلت زواج عتريس من فؤاده باطل

فارتد الصدى

باطل

باطل

.....

الزغاريد تصل أذنى

وطلقات نارية فى الهواء لا تتوقف

قلت ربما كان زفاف واحد أو واحدة من أبناء الحى .

لم يعد بالقلب موضعا لابتسامة

مع بقاء حالة أمى دون تحسن

أصرخ وحدى بلا فائدة

أوخز بالابر ، وبتعليمات الدكتور فى الجامعة ، أطيَّر الغبار ؛ بلا فائدة .

الزغاريد منذ الصباح لا تتوقف

واطلاق النار فى الهواء ابتهاجا ، ولم أفتح النافذة ، ولم لأستطلع الأمر .

حتى سمعت ارتطام المقعد بحائط غرفتى يعلن سقوط شيئ ثقيل انتفضت ، هى أمى التى سقطت .

وقبيل وصولى للصالة سمعتها تنطق

تتكلم بلسان مبين

(أخيرا جئت يا حبيبى)

رأيته واقفا أمام أمى بزيه الميرى وبذات الأفرول ، والكاب على رأسه .

أبى .

إنه أبى

اقتربت منه وتحسست جسده

لم يكن أشلاء .. بل سليما معافاً .

بنفس الابتسامة التى أعشقها .

أمسكنا بيدها ، فتساندت علينا

ركل أبى المقعد المعدنى

وحملها من تحت ابطيها .

كأننى أحلم

كل الدنيا علمت بعودته الا نحن ؟!!!!

.....

قلت دامعة : يا أبى الشيخ سيف .

أشار لى بيده فتوقفت عن اتمام كلامى

قال : أعلم بكل شيئ .

قلت وأنا أجهش بالبكاء : إذن أين كنت .

قال : كنت موجودا

تساءلت : والشيخ ؟!!!!

أجاب بابتسامته دافئة : كنت أعلم أنه سيطرق الباب فى غيابى

قلتُ : وموضوع زواجه من أمى .

قال الناس قالت كلمتها :

الزواج باطل

ألم تسمعيهم.

لم أصدق أذنى .

وأضاف :

والقضاء قال كلمته .

والـ.....

ارتميت فى حضنه ، مسح دموعى .

وأخذنى فى حضنى .

ثم قال موجها لأمى : ألم أقل لك يا أم منال من قبل ؟

نطقت أمى وسمعتها تقول : أحب سماعها منك .

قال : الموت لا يخيب أحدا يترصده .

تمت